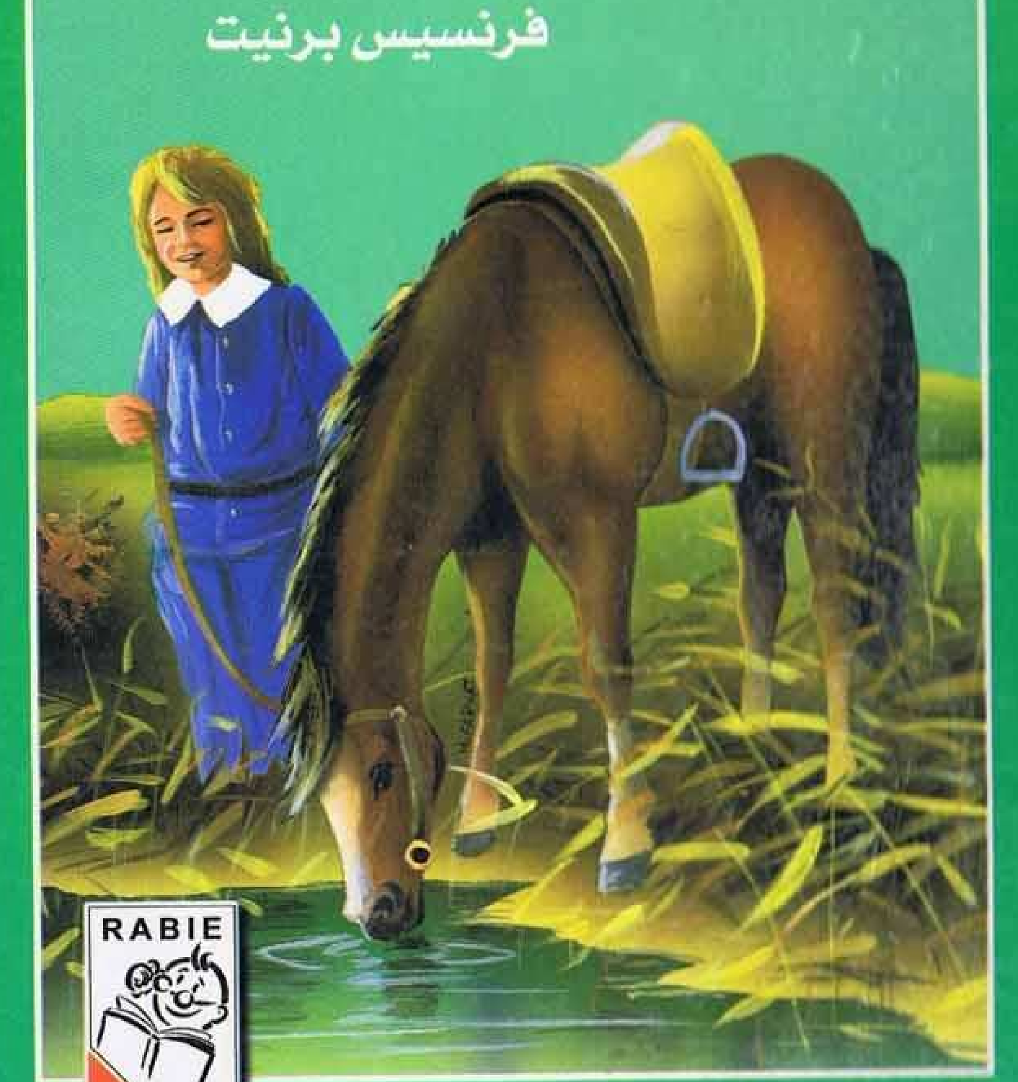
روايات عالمية للناشئة

اللورد الصغير

فرنسيس برنيت



RABIE

اللورد الصغير

فرنسيس برنيت



21

اللورد الصغير

فرنسيس برنيت

سدريك فتى يتيم يعيش مع أمه الأميركية ، بعد وفاة أبيه الضابط الإنكليزي . ذات يوم يستدعيه جده في إنكلترا ليرث أملاكه ، ويحمل لقب (اللورد الصغير). فهل طابت له الحياة ؟ وكيف تقلبت به الأيام ؟ .

صدر من هذه المجموعة :

1 - الذئب الأبيض
2 - توم سوير
3 - الهندي الشجاع
4 - مذكرات حمار
5 - نداء الغابة
6 - روبنسون كروزو
7 - هايدي
8 - حكايات أندرسون
9 - عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10 - ريمي الصغير
11 - نساء صغيرات
12 - جزيرة الكنز
13 - حول العالم في ثمانين يوماً
14 - كوخ العم توم
15 - شرلوك هولمز
16 - مغامرات الكابتن فراكاس
17 - حرب النار
18 - الحوت الأبيض
19 - كتاب الأدغال
20 - أحدب نوتردام
21 - اللورد الصغير
22 - الشيطان الصغير
23 - أحزان صوفي
24 - فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات



اللورد الصغير

(فرنسيس برنيت)

1849– 1924

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشراف : محمد كمال

إخراج فني : م. نشوان خريط



جميع الحقوق محفوظة لدار ربيع ولا يجوز إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو التسجيل أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية إلا بإذن مكتوب من الناشر . ترسل جميع الاستفسارات إلى دار ربيع .

اللورد الصغير

الفصل الأول

سدريك



حينما توفي والد سدريك كان طفلاً صغيراً لا يذكر عنه شيئاً كثيراً ، وذكرت له والدته أن أباه من أصل إنكليزي ، وكل ما يذكره عنه أنه كان طويل القامة أزرق العينين ، وأن له شاربين أشقرين طويلين ، وأنه كان يستمتع بالتجوال بالحديقة وهو جالس فوق كتفيه .

وأدرك سدريك أنه لا ينبغي له الحديث عن والده أمام أمه وإلا انخرطت في البكاء .

حينما أقعد المرض والده أبعدوه عنه ، وبعد أن عاد كان كل شيء قد انتهى وظل سؤاله : " كيف حال أبي ؟ " بلا جواب ، ولكن تضمه أمه إلى صدرها وتبكي ، ففهم أنه قد توفي ، وتحاشى

أن يذكره أمام (شيري) الاسم الذي ينادي به والده أمه ويستعمله الطفل الصغير لندائها مثلما كان يفعل والده .

وكان يعلم أيضاً أنه لا ينبغي لـ (شيري) أن تظل وحيدة غارقة في أفكارها تتأمل النار أو تنظر من النافذة ، فيحاول أن يخفف عنها .

كانت السيدة (إيرول) والدة سدريك لا تعرف كثيراً من الناس ، ولم يدرك ذلك إلا بعد زمن طويل . والواقع أن (إيرول) حينما تعرف على (شيري) وهو ضابط في الجيش البريطاني ، كانت فتاة يتيمة جميلة تعمل لدى عجوز غنية سيئة الطباع .

و ذات يوم كان يزور هذه العجوز ، فالتقى بهذه الفتاة وهي تصعد إلى الطابق العلوي باكية . وقد صدمه حسنها والحزن المخيم على محياها الجميل ، ولم ينسها فتزوجها بعد وقت قصير ، لكن هذا الزواج لم يرق للناس ، وعارضه خاصة والد الضابط ، وهو سيد إنكليزي بالغ الثراء يكره كل شيء يَمتُّ إلى أميركا بصلة ، ولكن الفتاة لسوء الحظ أميركية ، وقد جرت أحداث هذه القصة في أميركا .

كان للضابط إيرول أخوان شقيقان ، وتقضي القوانين البريطانية أن يرث الابن الأكبر ثروة أبيه ولقبه ، ولا يمكنه الحصول عليهما إلا بوفاة هذين الأخوين اللذين يختلفان عنه أشد الاختلاف ، وكان أخوه الأكبر متبجحاً لا أصدقاء له في الجامعة ، وكان الأب يتألم لأن مثل هذا الولد سيرث لقب النبالة غير الجدير به .

ويعذّبه أن يرى ولده الأصغر الجدير باللقب محروماً منه ، فأرسله إلى أميركا لئلا يذكّره كل يوم بمأساته .

بعد ستة أشهر ، راسل ولده في أميركا يدعوه إلى المجيء ، وكان جواب ولده أنه تعرف على فتاة أميركية وأنه عازم على الزواج منها . وانتابت الأب حالات من الألم الفظيع ، فكان يتمشى في قاعة قصره وهو يتوعده ، ثم تناول ورقة وقلماً وكتب إليه يمنعه من الحضور إليه أو مراسلته أو مراسلة أخويه ، وأنه يستطيع أن يعيش أو يموت أينما يشاء ، ولكنه لن يأمل بمساعدة أبيه ما دام على قيد الحياة . ثم ختم الرسالة وبعثها إليه بالبريد .

لم يكن الضابط إيرول يتوقع مثل هذا الرد العنيف ، وأحزنه أن يبتعد عن موطنه إنكلترا وعن قصر أجداده ، وكان يُكنُّ لأبيه حباً شديداً ويتألم لهذه القطيعة التي لا يَدَ له فيها .

بدأ الضابط يبحث عن مصدر رزق يعيش به ، فهو لا يحسن أيّة مهنة ، وقد نشأ وتربى على حياة اليسر والرفاهية ، ولكنه شجاع عنيد ، فاستقال من الجيش البريطاني ووجد له عملاً في نيويورك حيث أعلن زواجه .

لم تكن نيويورك في ذلك العهد كما هي اليوم غاصة بالناس عامرة بناطحات السحاب ، بل هي مدينة كبيرة مزدهرة . ووجد الضابط منـــزلاً صغيراً منعزلاً ، فسكنه مع زوجته وفيه الطفل المدعو سدريك .

لم يندم الضابط على زواجه بهذه الفتاة اليتيمة ، فقد عرف السعادة معها . وكان فخوراً بولده الجميل الذي يتمتع بصحة وافرة ، فلم يعرف المرض أبداً ، وكان شعره الأشقر ينسدل جدائل على كتفيه ، وعيناه العسليتان تحدقان فيما حوله . ولم يكد يبلغ التسعة أشهر حتى وقف على قدميه وبدأ المشي .

وقد أحبه الناس جميعاً ، وكانوا يبتهجون لرؤيته ضاحكاً ، ويداعبون خصلات شعره الأشقر ، وكان يرد على ابتسامهم بضحكة بريئة صافية الرنين ..

و كلما تقدم به العمر زادت رقة طباعه وأحس أن العالم عامر بالناس الطيبين ، وأن سعادته جزء من سعادتهم ، ولعله استمد هذه الصفة من خصال أمه وأبيه اللذين كانا يعاملان الجيران بالود والوفاء .

وحينما أدرك أن أباه لن يعود وجَّه كل عنايته وحنانه إلى أمه شيري كما كان يفعل والده ، وعلى الرغم من حداثة سنه إلا أنه كان يحمل إليها كتابه المصور لتتسلى معه ، أو يلتصق بها مسنداً رأسه الجميل إلى كتفها .. وهذا كل ما يقدر عليه الطفل الصغير . ولا يجد السعادة إلا بصحبتها ، فيلعبان أو يتنـــزهان أو يقرآن معاً ، وقد تعلم القراءة بسرعة ، فكانا يقضيان الأمسيات ساهرين ، ويستلقي سدريك على بطنه ويقرأ بصوت مرتفع ما يقع تحت يده من كتاب مصور أو حكاية خرافية ، وحتى الجريدة يقرؤها دون أن يفهم معناها . وكانت الطباخة العجوز ماري تسمع

ضحك سيدها وهي تصغي إلى شروح سدريك على التراكيب التي لا يفهمها .

قالت ماري للبقّال في الحارة : إن هذا الصغير يدفعني إلى الضحك .. فلو رأيته حينما جاء إليّ في المطبخ مساء الانتخابات الرئاسية ويداه في جيبه وعلى وجهه سيماء الوجه كأنه قط حزين وقال : ما رأيك في الانتخابات يا ماري ؟ أنا جمهوري مثل شيري ، وأنت ما اتجاهك ؟

فقلت له : آسفة .. ولكنني ديمقراطية .

فقال آسفاً : أوه .. ألا تدرين يا ماري أن الديمقراطيين يجرون الأمة إلى الدمار ؟

وكان يأتيني كل يوم محاولاً تغيير اتجاهي السياسي ..

إن ماري تحب سدريك أشد الحب ، وقد دخلت في خدمة السيدة إيرول منذ ولادته ، ومنذ وفاة الضابط تقوم بأعباء المنـــزل كلها ، وكانت فخورة بهذا الرجل الصغير .

فلا تعجز عن النهوض مبكرة ، أو البقاء مساءً لكي ترتب أشياءه ، وتنظف غرفته .



وتقول لمن يخاطبها في ذلك :

– إنه مثل أمير صغير .. فأروني طفلاً واحداً في الشارع الخامس يشبهه في أناقته وبهائه ! إنه كاللورد الصغير حين يتجول ببذلته السوداء المصنوعة من المخمل وياقته الدانتيلا !

والحق أن ماري لم تر أي لورد في حياتها ، وأن سدريك لم يتخيل كيف يكون اللورد . وكان أعز أصدقائه السيد هوبس الذي ينتهر الناس ، ولكنه لا ينهره أبداً ويعتقده أقوى الناس وأغناهم ، لأن حانوته يضم كل أنواع السلع والمواد الغذائية ، أضف إلى ذلك أنه يمتلك حصاناً وعربة يربط الحصان إليها . وكان سدريك يحب بائع الحليب وبائعة التفاح ، ولكن السيد هوبس شخصية عظيمة مختلفة عنهما .

وأما احترام سدريك لآراء السيد هوبس فقد جعله يعتبر هذا الفتى شخصاً يجدر الحديث معه ، ولذلك يأتي سدريك إلى حانوته كل يوم ويناقش معه القضايا الكبرى ، مثل الرابع من تموز العيد الوطني الأميركي ، فيروي له الرجل ملحمة الثورة واستقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا العظمى ، وقد كانت إحدى

مستعمراتها ، ويفاخر بمآثر بلاده بمواجهة الإنكليز الغاصبين ، ويرى السيد هوبس أن الإنكليز سخفاء بمملكتهم ونبالتهم وطريقتهم في الحياة ، ويسرد بالمقابل على سدريك مقاطع طويلة من إعلان الاستقلال التي يصغي إليها وهو محمر الوجنتين مقشعر الشعر ، ويتحرق شوقاً لكي يعود إلى البيت كي يحكي لأمه عن هذه الأشياء كلها .

وبذلك نقل إليه السيد هوبس حب السياسة والاهتمام بها ، وكانت تأتيه الصحف فيقرؤها بصوت مرتفع ليكون سدريك على اطلاع تام بما يحدث في واشنطن .

وكانت الانتخابات الرئاسية حدثاً هاماً بالنسبة إليه ، فاصطحبه السيد هوبس إلى الاستعراض الذي يرافق هذا الحدث ، فكان حملة المشاعل يبتسمون لرؤية هذا الرجل البدين وهو يجفف جبينه بمنديله ، وفوق كتفيه فتى في الثامنة أو التاسعة يلوّح لهم بقبعته وشعره يتهدل على كتفيه .

بعد هذه الانتخابات طرأ شيء بدّل حياتهما معاً .

ذلك اليوم كان سدريك يناقش مع السيد هوبس حالة إنكلترا والملكة فكتوريا ، فأبدى السيد هوبس آراء معادية للأرستقراطية الإنكليزية ، ووجه انتقاده خاصة إلى طبقة الكونتات واللوردات البريطانية .

بعد أن لعب سدريك مع رفاق الحي ، وأتعبته حرارة الشمس دخل حانوت السيد هوبس الرطب وجلس في مكانه المعتاد ، وكان هوبس يقرأ مقالة تصف الاحتفالات الرسمية في البلاط الملكي البريطاني ، فاشتد به الغضب وقال ساخطاً ومتوجهاً بالخطاب إلى سدريك :

– أليس ما يحدث عاراً على إنكلترا ؟ وسوف يأتي يوم يثور فيه أولئك الكادحون من الشعب فيفتكون بطبقة اللوردات وأمثالهم .

وسدريك يصغي إليه ويداه في جيبيه مقلداً السيد هوبس ، ثم سأله :

– كيف يكون الكونت أو المركيز ؟ وهل عرفت الكثير من طبقتهما ؟

فكاد السيد هوبس يختنق من الغضب وصاح :

– العياذ بالله ! لو أن أحد هؤلاء المتسلطين دخل حانوتي وجلس على إحدى علب البسكويت لرأيت ما أفعل به !

واشتعل السيد هوبس بتصريحاته النارية هذه ، وجفف عرق جبينه بمنديله الكبير ، فقال سدريك وهو محتار في حالة هؤلاء البائسين :

– لعلهم لا يريدون أن يكونوا من طبقة اللوردات أو الكونتات لو كان لهم الاختيار !

فقال هوبس :

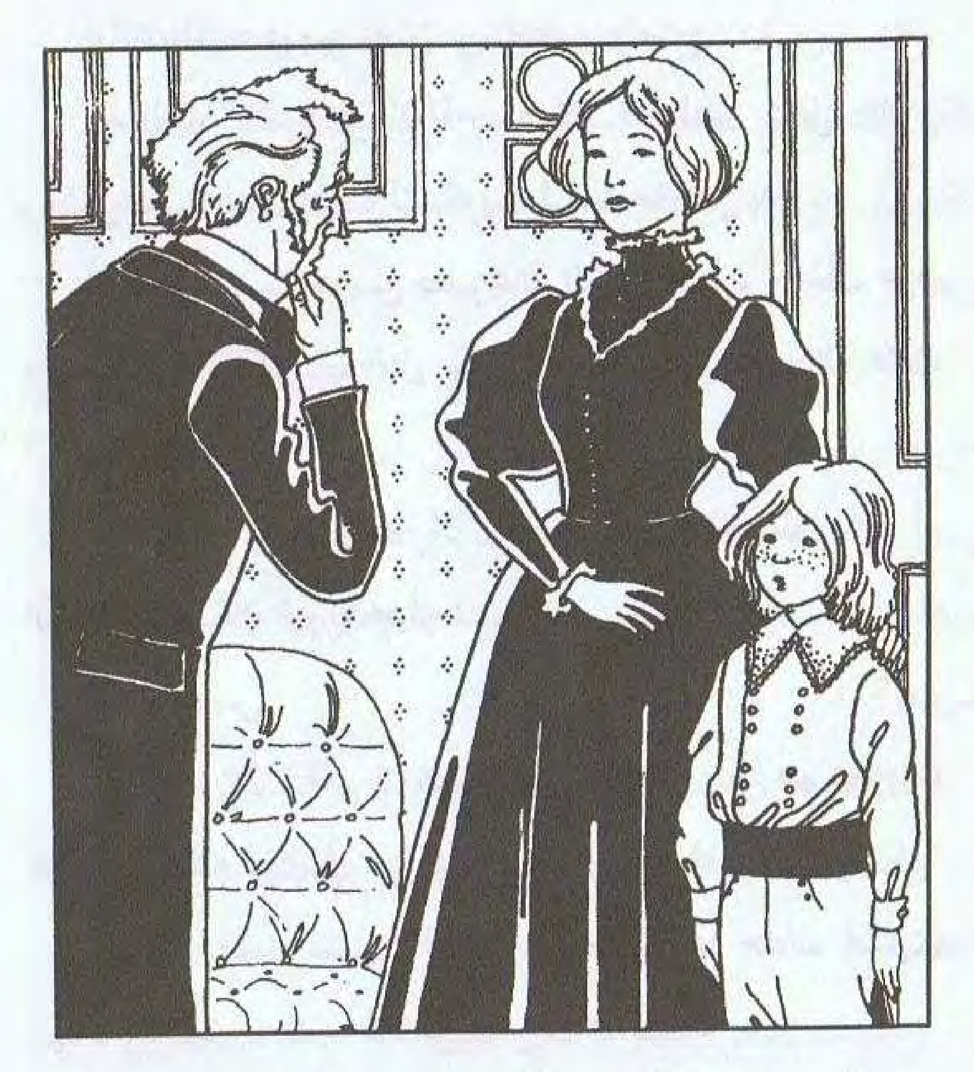
– لا .. لا .. إنهم لا يخجلون من حالتهم ، بل هم فخورون بها ، إنها كالدم تجري في عروقهم .. نعم .. إنهم فصيلة مختارة .

حينئذٍ دخلت ماري الحانوت ، وحسبا أنها جاءت لتشتري شيئاً ، ولكنها جاءت باحثة عن سدريك فقالت له :

– إن السيدة تدعوك يا حبيبي .. تعال حالاً !

فقال سدريك وهو ينـــزلق عن المقعد ..

– ماذا حدث ؟ هل تريد شيري أن تقوم بنـــزهة ؟



وتأملته ماري كأنها تراه لأول مرة ، فسألها الطفل :

– ماذا أصابك يا ماري .. هل أثرت فيك حرارة الجو ؟

فقالت وقد انتزعت نفسها من تأملاتها :

– لا .. لا .. ولكن تحدث أمور غريبة في المنـزل .. هيا .. إلى اللقاء يا سيد هوبس !

تبعها سدريك محتاراً ، وفي الواقع أن عربة كانت واقفة أمام المنـزل ، ورآى من نافذة القاعة أمه وهي تحادث رجلاً .

أخذته ماري أولاً إلى غرفته حيث ألبسته بذلته البنّية وحزامه الأحمر ، ومشطت خصلاته الشقراء بعناية وهي تقول لنفسها بصوت خافت :

– ما هذه القضية يا رب ؟ ما هذه القضية ؟

لم يسألها سدريك تفسيراً ، وإنما هبط الدرج مسرعاً فوجد أمه تبكي وأمامها رجل نحيل جامد الملامح متقدم في العمر ، فاندفعت إليه صائحة :

– سدريك .. يا ولدي الحبيب .. هذا أنت ؟

تأمله الرجل بانتباه وهو يضع أصبعه على ذقنه ، وبدا عليه السرور وهو يقول بصوت رزين :

– هذا هو إذاً لورد (فونترو) الصغير !

الفصل الثاني

أفضل أصدقاء سدريك



لقد أصابت الدّهشة هذا الطفل الصغير ذلك اليوم والأسبوع الذي تلاه ، وأصغى إلى الحكاية التي روهما له أمه بانتباه شديد ، ولم يتمكن من استيعابها إلا بعد أن أعادها عليه مرات عديدة ، فتساءل عما سيظن به السيد هوبس ، فالحكاية فيها كثير من أصحاب الألقاب كاللورد والمركيز والكونت .

نعم .. إن جده لأبيه كونت وينبغي لابنه الأكبر أن يرث لقبه ، ولكنه توفي - لسوء الحظ - بعد سقوطه عن فرسه ، وأما ولده الثاني ، العم الآخر لسدريك ، فقد خطفته الحمّى في روما ، وكان مقدراً لوالد سدريك أن يكون كونتاً ، ولكنه توفي أيضاً ،

فلم يبق من هذه العائلة سوى سدريك ليرث لقب الجد بعد وفاته ، وغدا اسمه منذ الآن (لورد فونترروا) .

فاصفر وجه سدريك ، وهتف :

- ولكني لا أريد أن أكون كونتاً ، ليس أحد من أصدقائي له لقب كونت ، ولا يوجد في الحارة كلها ، ألا يمكن إعفائي من هذا اللقب ؟

وتبين له أنه لا مفرّ له من هذا اللقب ، ولن يكون كونتاً بمحض إرادته . وشرحت السيدة إيرول لولدها ذلك المساء كيف أن جده الذي بقي بلا وريث ، قد أرسل هذا السيد النحيل إلى أميركا ليبحث عن حفيده ويأتي به إلى إنكلترا ، وكان رأي والدته أن يذهب ، وقالت له :

- لو كان أبوك حيًّا لرغب في ذهابك إلى إنكلترا ، وحين تكبر تعرف أن السفر لفائدتك .. ولن أكون أنانية لأحتفظ بك هنا .

فهز سدريك خصلاته الذهبية بحزن وقال :

- إني سعيد هنا ، وسوف أشتاق إلى السيد هوبس كما سيشتاق لي ، سأشتاق إلى الناس جميعاً هنا .

من الغد رجع مبعوث جده إليه ، وأطلعه على كثير من التفاصيل وكيف أنه سيكون غنياً ذات يوم ، يملك القصور والمزارع ومناجم الفحم والمطاحن والحقول الواسعة .

ولكن هذا لم يخفف حزنه ، وكل ما يشغل باله كيف سيعلن هذا النبأ للسيد هوبس الذي سيراه بعد الظهر ، وكان السيد هوبس وحده في الحانوت وقد خفض الباب بسبب الحر الشديد ، وسأله :

- كيف الحال ؟

فقال سدريك :

- صباح الخير يا سيد هوبس .

وبدلاً من أن يجلس على مقعده المعتاد جلس على علبة البسكويت وظل صامتاً ، وطال صمته حتى أحنى السيد هوبس رأسه وسأله :

- عساك بخير يا سدريك !

فقال سدريك وقد استجمع شجاعته كلها :

- أتذكر عمّ كنا نتحدث البارحة ؟

- نعم .. كنا نتحدث عن النبلاء .

وأحس بالحرج وهو يسمع هذه الكلمة ، وأحمر وجهه حتى منبت شعره وقال :

- كنت تقول : إن تجرأ أحدهم وجلس على علبة البسكويت فسوف يرى ما تفعل به .

فقال هوبس بحماسة :

- نعم .. هذا ما كنت أقوله .

فقال سدريك بصوت خافت :

- اعلم يا سيد هوبس أن أحد اللوردات جالس على علبة البسكويت هذه .

فصاح السيد هوبس وقد توسعت عيناه :

- ماذا ؟

- نعم .. الظاهر أني لورد من نبلاء إنكلترا ، أعني سأكون لورداً في المستقبل ، علمت ذلك أمس ، ولا أريد أن أخدعك .

فاحمر وجه السيد هوبس وفك ربطة عنقه وقال :

– لا ريب أن الجو خانق هنا .. هل أنت بخير يا ولدي ؟

ووضع يده على جبين سدريك ، فقال بهدوء :

– أؤكد لك يا سيد هوبس أن ما أقوله صحيح ، لقد جاء بالأمس السيد هافيشام من إنكلترا وهو مبعوث جدي وشرح لي ولوالديّ الظروف الطارئة .

فتأمله السيد هوبس طويلاً ثم سأل :

– وكيف يدعى جدك .

فمد سدريك يده إلى جيبه وجذب ورقة وقرأ فيها :

– إنه يدعى : (جون آرثر مولينو إيرول ، كونت دورنكور) ، وهو يعيش في أحد القصور ، أو عدد من القصور .. لست أدري .. وقد توفي ولداه بعد وفاة أبي ، وأجدني مضطراً إلى حمل هذا اللقب .

وظن السيد هوبس أن العالم ينهار من حوله ، وهذا الطفل الصغير الذي لا تكاد قدماه تلمسان الأرض وهو جالس فوق علبة

البسكويت ، قد أصبح لورداً ، وبالأمس كان من أشد المتحمسين للحزب الجمهوري . وسأله :

– وكيف ستدعى في المستقبل ؟

– سدريك إيرول ، لورد فونترو ، هكذا قال لي السيد هافيشام .

وبدأت الحقيقة تتضح ناصعةً في ذهن السيد هوبس ، فأطلق أعظم شتيمة يعرفها ولا يستخدمها إلا في المناسبات الكبرى ، فقال :

– آه .. يا كيس الورق .. ليحملني الشيطان معه .

وتأكد أن السيد هوبس قد سيطر على الغضب لأنه لم يسمع منه هذه الشتيمة المبتكرة من قبل ، فقال له :

– إن ما يزعجني أن إنكلترا بعيدة جداً .. أليس كذلك ؟

فقال السيد هوبس :

– نعم .. بعيدة جداً .. في الطرف الثاني من المحيط الأطلسي .

– ويحزُّ في نفسي ألا أراك .. إني حزين .

فتحسر السيد هوبس وقال :

– هذا حال الدنيا .. تفرق الأصدقاء بعضهم عن بعض .

– إننا نعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات .. أليس كذلك يا سيد هوبس ؟

– نعم .. منذ ولادتك .

– آه .. لم يخيل إلي يوماً أني سأكون لورداً !

فقال هوبس :

– ولا مفر من ذلك ؟

– لا .. لا مفر .. ولكني أعدك بأن أكون لورداً عادلاً ، وأمنع قيام الحرب بين إنكلترا وأميركا إذا لاحت بوادرها ..

كان السيد هافيشام مندهشاً لما يراه في أميركا ، فهو قد ولد في إنكلترا وعاش فيها ولم يشاهد عادات الأميركان عن قرب ، وهو موكل بإدارة أعمال الكونت دورنكور منذ أربعين سنة كما كان أبوه من قبل ، وجده قبل ذلك ، لذلك جعل يتأمل هذا الفتى الذي سيرث الأملاك الواسعة والثروات الطائلة التي سيخلفها له جده . وكان على معرفة بالخلافات بين الجد وأبنائه ، وحرصه على كراهية الأرملة التي يدعوها (الدخيلة) ، وهو يوافق سيده النبيل

على آرائه ، وطالما رأى في حياته المهنية أناساً يفضلون المال والجاه على السعادة وكرم الأخلاق ، وإن رأيه في الأميركان لا يختلف كثيراً عن رأي اللورد الشيخ .

وحينما توقفت عربته أمام البيت المتواضع أصيب بالذهول .

أهنا يعيش اللورد الذي سيرث هذه الأملاك الواسعة كلها ؟ وهذه الحارة الضيقة التي لا تكاد تتسع لمرور العربة ؟ . وتفحص بدقة وانتباه القاعة التي أدخلته إليها ماري ، فأدهشه أن تكون مريحة أنيقة ومزينة الجدران برسوم عليها لمسات المرأة الماهرة ، وقال لنفسه :

– الأمور لا بأس بها حتى الآن .. ولعله ذوق الضابط إيرول .. لننتظر البقية .

وحين دخلت الأرملة الصبية تأكد له أن ذوقها هو الذي ترك طابعه على البيت ، ولولا أن مهنته الطويلة وتعامله مع رجال المال قد أثرا فيه لتأثر شديد التأثر بهذه السيدة الممشوقة القامة المرتدية السواد ، ولكن تجربته علمته أن يحكم على الناس من الوهلة

الأولى ، وكان انطباعه عنها حسناً بحيث قال لنفسه إن الكونت قد ارتكب خطأً جسيماً حينما وصفها بالدخيلة المتعطشة إلى الجاه .

وشعر بارتياح في تعامله معها ، وكانت مثال البساطة والوضوح والذكاء ، وانتظر بفارغ الصبر أن يتعرف على ولدها الصغير . وقالت له بصوت مرتجف بعد أن أنهى كلامه :

– هل معنى ذلك أنهم سيأخذونه مني ؟

فسعل السيد هافيشام لكي يربح بعض الوقت ، ثم قال :

– الحق ياسيدتيّ أن الكونت لا يرتاح إليك .. وهو رجل هرم متمسك بآرائه ولا يتعاطف كثيراً مع أميركا والأميركيين ، وقد أزعجه زواج ولده كما تعلمين .. ويؤسفني أن أكون نذير السوء ، ولكن الكونت مصر على ألا يتعرف عليك ، ويريد أن يشرف بنفسه على تربية لورد فونترو تحت سقف قصره في دورنكور حيث يقضي معظم أيامه ، لأنه لا يحب لندن ويعاني من داء النقرس ، وسوف تسكنين طبعاً في جناح من قصر قرب دورنكور ، ويُخصَّص لك معاش مناسب لمكانتك ، وسيأتي لورد فونترو لزيارتك كلما شاء . وكل ما يرجوه الكونت ألا تزوريه وألا

تتجولي في الحديقة ، فأنت – كما ترين – لن تفترقي عن ولدك ، وهذه الشروط .. كيف أقول ؟ أسهل شرط يمكن للكونت أن يمليها على أحد ، وأظنك مدركة للفوائد التي يجنيها اللورد فونترو من وجوده بجانب جده ، والتعليم الذي سوف يتلقاه ، على كل حال ، أنت التي تقررين في النهاية .

و أما السيد هافيشام فكان خائفاً من شيء واحد هو أن تبكي السيدة إيرول ، فهو لا يحتمل رؤية امرأة تبكي ، ولعل هذا ما دفعه إلى أن يظل عَزَباً .

نهضت الأرملة إلى النافذة ونظرت مدة طويلة وهي ترتجف من الانفعال ، ثم عادت إلى الرجل فقالت له :

– أعتقد أن مصلحة ولدي في العيش بجانب جده ، وآمل أن لا يحاول الكونت أن يبعد ولدي سدريك عني ، حتى لو حاول فلن ينجح .. وبما أنك قد أكدت لي أني سأراه ، لذلك ..

وأحس السيد هافيشام بالتقدير لهذه المرأة التي لا تفكر بمصلحتها كما ظن الكونت ، بل ترجو الخير لولدها . وتابعت السيدة إيرول قائلة :

– رجائي إلى الكونت أن يحيط سدريك بالعطف ، لأنه طفل رقيق الإحساس ، اعتاد معاشرة الناس بالحسنى وتبادل الحب مع أصدقائه .

وشعر السيد هافيشام بالحرج وهو يتصور الكونت الهرم الذي لم يبادل الحنان إنساناً في حياته ، ولكنه أمَّل أن يبدّل هذا الطفل مواقف الشيخ العنيد ، فقال بصوت مختنق :

– إن اللورد فونترويا سيكون بأحسن حال .. أؤكد لك ، ولذلك أراد الكونت أن تقيمي بجانبه في قصر لودج .

ووجد من سوء التهذيب واللياقة أن يعيد الكلام الذي ردده الكونت الهرم على سمعه في إنكلترا .

حينئذٍ نادت السيدة إيرول ماري وطلبت منها إحضار سدريك ، فقالت لها ماري :

– أظنه الآن جالساً في حانوت السيد هوبس يناقشان السياسة الأميركية .

فدُهش السيد هافيشام لهؤلاء الأميركان الذين يتركون أبناء النبلاء يترددون على حوانيت البقالين ويختلطون بهم ، فذلك غير

مألوف في إنكلترا ، وخشي أن تكون طبيعة الطفل قد تأثرت بصحبة الناس من العامة ، ولكن مخاوفه تبخرت دفعة واحدة وهو يرى (اللورد فونترويا) يدخل القاعة ، وقال لنفسه :

– لم أر في حياتيَ فتى في مثل جماله وصحته ، ولسوف يحظى جده إذا لم يجده ملائماً لما يتمناه .

والحق أن السيد هافيشام العَزَب لا يعرف الكثير عن أخلاق الأطفال ، ولا يستطيع الحكم عليهم من منظرهم ، ولكن طلعة سدريك قد أذهلته وأكدت له أنه حسن التهذيب . وحينما دخل الفتى صافح يد الرجل بقوة ، وأجاب عن أسئلته بوضوح وفصاحة كما لو كان يتكلم مع السيد هوبس ، فاكتساب الأصدقاء طبيعة ثابتة فيه ، ولاحظ الرجل أنه يصغي إلى حديثه بانتباه يندر مثاله لدى الأطفال .

وقال للسيدة إيرول :

– يبدو عليه أنه فتى رزين يزن كلامه قبل أن ينطق به .

فقالت مبتسمة :

– نعم .. هذه طبيعته .

لقد عاش سدريك وحيداً ولا صديق له سوى السيد هوبس ، واقتبس عنه طريقته في استخدام الجمل الطويلة والعبارات المعقدة التي يطالعها في الصحف ، وليس معنى ذلك أنه لا يحب اللهو ، فهو يقضي ساعات طويلة مع رفاقه في الحي . وقد لاحظ السيد هافيشام ذلك من صباح الغد حينما عاد لزيارة السيدة إيرول ولمح من نافذة العربة مجموعة من الأطفال قد التفوا حول طفلين يتسابقان ، وكان أحدهما اللورد فونتروا نفسه ، ووقف عربته يتفرج على السباق ، وكان الطفلان جنباً إلى جنب على خط الانطلاق ، وصاح الحكم :

– واحد .. اثنان .. ثلاثة .. انطلاق .

فرأى سدريك يجري وشعره الأشقر يتطاير في الهواء ويداه مضمومتان ، يتبعه منافسه محاولاً اللحاق به ، وجماعة من الأطفال تشجعهما صائحة :

– هيا سيد إيرول ! هيا .. بيل ويليامز .. هيا سيدي .. هيا .. بيلي !

فقال الرجل لنفسه وقد أحس بالحماسة لنهاية السباق :

– أظنه سيسبق .. بل أرجو أن يفوز !

وحينما وصل سدريك نهاية السباق متفوقاً على منافسه بخطوتين ، ارتمى السيد هافيشام في مقعده وقال :

– أحسنت يا لورد فونتروا !

ونزل من عربته فرأى الصديقين يضحكان فرحين وجماعة الأطفال تحيط بهما ، فقال سدريك لصاحبه :

– أتعرف لماذا سبقتك يا بيلي ؟ لأن ساقيّ أطول من ساقيك ، وسبب ذلك أنني أكبر منك بثلاثة أيام .

وأعاد هذا التفسير المنطقي بعض الثقة إلى بيلي الخاسر ، واعتبر هزيمته ضرباً من الانتصار ، لكنه انهزم أمام شخص يكبره بثلاثة أيام .

وكان تصرف سدريك برهاناً على طبيعته المهذبة . وقال السيد هافيشام وهو يتابع حديثهما : هذه نقطة تسجل له .



هذا الصباح تحادث الرجل مدة طويلة مع سدريك ، فكانت الابتسامة تعلو شفتيه ولم تفارقهما ، وهو الذي لم يبتسم منذ زمن بعيد ، حتى إنه فرك ذقنه بإصبعه المعروقة دليلاً على رضاه الداخلي ، وكانت السيدة إيرول قد تركتهما في قاعة الجلوس وحدهما ، فتساءل السيد هافيشام عما يمكنهما أن يتحدثا به ، وكان من واجبه أن يفضي إلى سدريك بالتغير الكبير الذي سيطرأ على حياته ، ولم يشأ أن يعلمه بأن أمه ستقيم معه . وحينما كان غارقاً في تأملاته ينظر إلى هذا الفتى الذي لا تكاد قدماه تلمسان الأرض إذا به يبادره إلى الحديث فيقول :

– عفواً ياسيدي .. ولكنك يجب أن تعلم أني لا أعرف معنى كلمة كونت .

– حقاً ؟ وتريد أن تعرف ؟

فتابع سدريك بهدوء واتزان :

– الأفضل أن يعرف المرء ما ينتظره ، وإذا كنت سأغدو كونتاً فالأجدر بي أن أعرف معناه .

فقال السيد هافيشام :

– إنه لقب يمنحه الملك أو الملكة لشخص أسدى الخير لوطنه .

فقال سدريك :

– إنه لقب شبيه بالرئيس إذن !

قال الرجل :

– وهل ينتخب الرئيس لديكم ؟

– نعم .. نعم .. حينما يكون الرجل شجاعاً عالماً ينتخب رئيساً في احتفال هائل ومسيرة بالمشاعل ، ولدي الرغبة في أن أكون رئيساً حين أكبر ، ولم أفكر في أن أكون كونتاً أبداً ، والسبب في ذلك أني لم أسمع بهذا اللقب من قبل .. هل كنت كونتاً يا سيدي ؟

فقال الرجل وقد فاجأه السؤال :

– لا .. لم أفكر في ذلك أبداً .

ثم انفجر يضحك بأعلى صوته ، فقال سدريك :

– ألا يوجد استعراض بالمشاعل حين ينصب الكونت ؟

قال الرجل :

– لا .. القضية تتعلق بالنسب القديم .

– النسب القديم ؟ آه .. نعم ، أعرف بائعة التفاح التي عمرها قريب من المائة عام وهي من النسب القديم ، وهي قديمة جداً لا تقدر على المشي ، ولكنها تخرج من منـــزلها كل صباح بالرغم من البرد القارص وتقول إن عظامها القديمة تؤلمها وخاصة أثناء الرطوبة .

فكتم السيد هافيشام ضحكه وقال :

– أظنك أخطأت في تفسير معنى النسب القديم ، فهو لا يدور حول عمر الرجل بل حول قدم عائلته ، فإذا كانت العائلة قديمة النسب وأصيلة في البلاد وقدمت خدمات إلى وطنها فإنها تعتبر من النسب القديم .

– مثال ذلك جورج واشنطن .. إنه مشهور في البلاد منذ تأسيسها ، وهو معروف بسبب " إعلان الاستقلال " والرابع من تموز .

فقال السيد هافيشام جاداً :

– هذا أكيد ، ولكن ينبغي لك أن تعلم أن أول كونت دورنكور يعود إلى حوالي أربعمائة عام قبل ميلاد جورج واشنطن نفسه .

فصفّر سدريك متعجباً :

– أربعمائة عام ! هذا زمن طويل ، يجب أن نخبر شيري وسوف تدهش له ، ولكن ماذا يفعل الكونت ؟

– كثير منهم كانوا قادة الجيوش .

فسكت سدريك قليلاً وهو غارق في أحلامه ، ثم قال :

– نعم ، يسعدني أن أصبح أحد قادة الجيوش ، لقد كان أبي ضابطاً شجاعاً ، لا يقل شجاعة عن جورج واشنطون ، ربما كان ذلك لأنه ابن كونت ، أليس كذلك ؟

– حتماً .. لأن الكونتات قوم شجعان .. ولكن هناك فائدة أخرى يجنيها الكونت وهي أن لديه كثيراً من المال .

ونظر إلى الصغير ليرى كيف يكون رد فعله لدى سماعه كلمة المال .

فقال سدريك :

– لا بأس .. أتمنى لو يكون لي المال الوفير .

فخاب أمل السيد هافيشام ولم يعرف السبب ، فسأله :

– وماذا تفعل بالمال الوفير ؟

فأجابه سدريك جاداً :

– أوه ، أشياء كثيرة .. لقد حدثتك عن بائعة التفاح ، فلو كان لدي المال لاشتريت لها خيمة تأوي إليها ومدفأة توقد بالفحم ، ثم أهبها دولاراً حينما يسقط المطر لكي تظل في دارها ، إن المطر خاصة يثير أوجاعها ، وينبغي أن أمنحها شالاً من الصوف يدفئها أيضاً .

فقال السيد هافيشام :

– حسناً ، حسناً .. وماذا تفعل أيضاً ؟

فقال سدريك مندفعاً في أحلامه الإنسانية .

– سأهدي شيري كثيراً من الأشياء ، مروحة أو كشتاناً من الذهب أو موسوعة ، فهي تحب الموسوعات ، وأعرف أنها تحب الفساتين ، فيجب أن أشتري بعض الفساتين من الحرير ، وأفضل

اللون الوردي ، لكنها تصر على اللون الأسود ، وبعد شيري هناك ديك ..

– ومن ديك هذا ؟

فقال سدريك وقد سيطرت عليه أحلامه :

– ديك هذا أحد أصدقائي .. وهو ماسح أحذية وشخص رائع أعرفه منذ سنوات بعيدة .. حينما كنت صغيراً .. صغيراً جداً ، اشترت لي أمي كرة فرميتها ، فقفزت إلى الطريق وجريت وراءها ، ولكن ديك الذي كان يمسح حذاء رجل رمى الفرشاة وسارع إلى الكرة فالتقطها ومنعني من اجتياز الطريق .. ومن ذلك الحين انعقدت بيننا صداقة .. وأسأله عن عمله فيقول إن الأحوال سيئة هذه الأيام .

فقال الرجل :

– عظيم .. وماذا تريد أن تفعل لمساعدة هذا الصناعي ؟

فقال سدريك بعد تفكير :

– المهم أن أشتري حصة جاك ..

فأخفى الرجل فمه المبتسم وراء يده وقال :

– ومن يكون جاك ؟

– أه .. جاك هو شريكه .. وهو أسوأ شريك تصادفه في حياتك ، لأنه يفسد كل ما يفعله ديك ، كما قال لي ، ولا يحسن مسح الأحذية حتى انفض الزبائن عن ديك ولم يعودوا يمسحون أحذيتهم لديه بسبب شريكه جاك ، فلو استطعت لاشتريت حصة جاك أولاً لأنهما اشتريا المعدات معاً من فراش وخرق وأصبغة ، ثم بحثت له عن ماركة مسجلة ، لأن هذا يجلب الزبائن كما قال ، ثم اشتريت له ما شاء من معدات لينطلق انطلاقة كبرى .

كان سدريك يتكلم بحماسة رجل الأعمال الذي يخاطب رجلاً يتفهم الحالة السائدة لدى ماسحي الأحذية ، ويهتم بمصلحة ديك ومستقبله المهني . وقد كان السيد هافيشام مهتماً فعلاً ، ولكن اهتمامه منصرف إلى طريقة سدريك بالتفكير بأصدقائه ومحاولته للأخذ بأيديهم متناسياً مصلحته الخاصة ، فسأله أخيراً :

– ألا يوجد شيء تريده لنفسك ؟

فتحسر اللورد الصغير قائلاً :

– أه .. أريد كثيراً من الأشياء ، ولكن ينبغي أن نبدأ بماري ، فنعطيها بعض المال لأختها بريجيت التي يعمل زوجها بنّاءً وقد أقعده المرض الآن ، ولديهما عشرة أطفال ، وحياتهما صعبة كما ترى ! كما أتمنى أن أهب السيد هوبس ساعة ذهبية ، فهو كثير الشوق إليها .

– وماذا أيضاً ؟

فتحسر سدريك وقال :

– أسلح جيشاً ..

فقال الرجل وقد أذهلته المفاجئة :

– وماذا تفعل بالجيش ؟

– سأفعل مثلما تفعل كل الجيوش ، وأقوم على رأس الجيش باستعراض للمشاعل يجوب شوارع المدينة كلها .

حينئذٍ دخلت السيدة إيرول وقالت :

– المعذرة ، لقد تركتك مدة طويلة .. كنت مع امرأة بائسة .

– لا بأس .. كنت أتحدث مع اللورد الفتى عن آماله .

فنهض سدريك وقال مخاطباً أمه :

– هل هي بريجيت ؟ يجب أن أودعها قبل ذهابي ..

وخرج من الغرفة وهو يعدو .

قال السيد هافيشام بعد صمت قصير :

– ينبغي أن أقول لك ياسيدي إن كونت دورنكور قد زودني ببعض التعليمات ، وهو يريد لحفيده أن يرى هذا التغيير الطارئ على حياته سبباً لسعادته ، ولذلك يرى أن تنفذ رغباته في حدود المستطاع ، وأن يعلم أن جده هو الذي يهبها له ، ولا أجد مانعاً أن يمد اللورد يد العون إلى المحتاجين ، إذا كان هذا يسهم في إدخال البهجة إلى قلبه .

وكان السيد هافيشام يترجم بلغة مهذبة ما قال الكونت :

" أريد لحفيدي أن يعرف معنى الثراء وقوته "

وفسرت السيدة إيرول كلامه بأن الجد يرغب في التودد إلى حفيده ، وأسعدها أن يساعد سدريك البائسة بريجيت .

فقالت وقد احمرت خجلاً :

– هذه طيبة قلب من كونت دورنكور ، وسوف يفرح سدريك حين يمد يد المساعدة إلى هذه المسكينة ، ولن يضيع الإحسان فيها .

فمد الرجل يده إلى جيب سترته الداخلي وجذب حافظة نقود سميكة وفكر مبتسماً أن سيده سيدهش إذا علم أن أولى رغبات حفيده مد يد المساعدة إلى بنّاء مصاب بالروماتيزم ، وقال للسيدة إيرول :

– إن الكونت مُصر على تلبية رغبات حفيده كلها .. وإذا تلطفت بدعوة اللورد لأعطيه خمسة جنيهات تقدمة من جده .

فهتفت المرأة :

– خمسة جنيهات ! خمسة وعشرين دولاراً .. يا إلهي ! هذه ثروة ، وقد يطيش لها صواب الصغير !

فقال الرجل :

– لا أظن يا سيدتي .. واعتقادي أنه ليس طفلاً تماماً ، بل هو طفل ناضج ويحسن تقدير الأمور ، ويمكن الوثوق به .

ودخل سدريك وهو يقول مهموماً :

– إنه الروماتيزم .. وميخائيل يفكر طول الوقت بأجرة بيته ، مما يزيد في مرضه .. عفواً يا سيدي ، علمت أنك تريد أن تقول لي شيئاً .

وبدأ الرجل الكلام ، ولكن لسانه تلعثم ولم يعرف كيف يشرح لسدريك مقصده ، فتولت الأم عنه هذه المهمة ، فأحاطت كتف ولدها بيدها وقالت :

– إن جدك الكونت رجل بالغ الطيبة ، وهو يحبك ويريد لك أن تبادله هذا الحب ، لأنه فقد أولاده وفيهم والدك ، ويريدك أن تكون سعيداً ويلبي رغباتك المعقولة كلها ، وقد أرسل إليك مبلغاً كبيراً من المال ، وتستطيع أن تعطي منه لبريجيت وميخائيل إذا شئت ، أليس جدك رجلاً لطيفاً ؟

فهتف سدريك :

– كيف ؟ هل هذا صحيح ؟ هذا رائع .. هل أستطيع الحصول على النقود قبل أن تنصرف بريجيت ؟

فمد إليه السيد هافيشام برزمة من الأوراق النقدية الجديدة ، فخطفها سدريك وانطلق يصيح :

– بريجيت .. بريجيت .. انتظري ، إنه جدي ..

وقالت الأم :

– يجب أن أشرح لبريجيت ما يحدث ..

ثم خرجت ، وبقي الرجل في الغرفة وحده ، فتقدم إلى النافذة يتأمل الفتى الضاحك وهو يقدم إلى البائسة بعض النقود ، وقد قال في نفسه : " إنه لفرق شاسع بين الجد والحفيد .. نعم إنه لفرق عظيم " .

ثم دخل سدريك مبتهجاً وقال :

– تصور أن بريجيت كانت تبكي .. وقالت إنها دموع الفرح ، هل تخيلت أحداً يبكي من الفرح ؟ إن جدي رجل كريم .. والحقيقة ، إنه لشيء ممتع أن أكون كونتاً !

الفصل الثالث

الرحيل

إن الفكرة النافعة التي استمدها سدريك من كونه كونتاً قد تأكدت في الأيام التالية ، فأدرك أن رغباته كلها يمكن تحقيقها .

وكان السيد هافيشام ينفذ طلباته والابتسامة تعلو شفتيه ، وأثناء الأسبوع السابق على الرحيل إلى إنكلترا قام بمهمات لم يكن يتصور نفسه قادراً على القيام بها من قبل . مثال ذلك .. أنهما مضيا معاً إلى مقابلة ديك ماسح الأحذية في حي وسط نيويورك ، وبعد الظهر زارا بائعة التفاح العجوز ، ولم تصدق أذنيها حين ذكرا لها أنه سيكون لها الآن كوخ وشال صوف ومدفأة ومبلغ من المال تستعين به على فقرها .

وشرح لها سدريك الأمر قائلاً :



– الحقيقة أني ذاهب إلى إنكلترا وأن جدي شديد العطف على الناس ، ويحزنني أن تؤلمك عظامك إذا اشتد البرد ، فأنا لا تؤلمني عظامي ولا أحس بآلامك ، ولكني أعطف عليك وآمل أن تبرئني ذات يوم .

وظلت بائعة التفاح (من النسب القديم) فاغرة فمها دهشةً .

وفي الطريق ذكر للسيد هافيشام أن العجوز امرأة صالحة لأنها أهدته تفاحة وهو صغير ، وهو لا ينسى من أحسن إليه . وأما ديك فقد وقف مندهشاً لرؤيتهما ، ولم يصدق أن الثروة قد هبطت من السماء على صديقه الصغير ، وظنها دعابة ، ولكنه بدّل رأيه حينما رأى الأوراق المالية الجديدة بين يديه لكي يشتري بها حصة جاك ، فقال له سدريك بصوت مرتجف :

– الوداع يا ديك .. آمل أن توفق في عملك ، وآسف لرحيلي ، ولكني أصبحت لورداً الآن ، وآمل أن أعود إليك ذات يوم ، ولكن لا تنس أن تكتب إلي .. وهذا عنواني ، ولم يعد اسمي سدريك إيرول بل لورد فوتروا .. وإذن .. الوداع يا ديك .

كان الحزن يعصف بديك ، فحرك الأوراق المالية أمام عينيه ليخفي دموعه ، ثم قال وهو يشد على يدي صديقه :

– الوداع .. وإني حزين لفراقك

ثم توجه إلى السيد هافيشام قائلاً :

– وأشكر لك مجيئك يا سيدي .. إن صديقي سدريك فتى شهم طيب الأخلاق .

وتأملهما وهما يبتعدان عنه والدموع تسيل على خديه .

حتى لحظة الرحيل ظل سدريك بصحبة السيد هوبس ، وكان يقضي معظم وقته معه . وكان البقال البائس شديد الحزن ، وحينما جاءه سدريك كالمنتصر بساعة ذهبية ذات سلسلة ، وضعها الرجل على ركبتيه وجعل يتمخط في منديله ليخفي تأثره ولا يدري ما يقول له .

وقال سدريك بصوت حائر :

– لقد طلبت من الساعاتي أن يكتب عليها هذه العبارة : " ذكرى من اللورد فونتروا إلى صديقه السيد هوبس " فلا أريدك أن تنساني .

فلم يتمالك الرجل نفسه وانخرط في البكاء ، ثم قال بصوت أجش :

– ولا أريدك أن تنساني أيضاً أيها الصديق الصغير !

فقال سدريك بحماسة :

– لن أنساك طبعاً .. وآمل أن تأتي لزيارة جدي فهو رجل طيب القلب .. وسوف يكتب إليك بنفسه ، ولا أظنك تغضب منه لأنه كونت .. أليس كذلك ؟

فقال السيد هوبس بلهجة مرحة :

– لا .. لا يغضبني هذا .

وانتهت الاستعدادات للرحيل ، ووضعت الحقائب فوق عربة لتأخذها إلى المرفأ . ووقفت عربة الركاب أمام البيت . أما السيدة إيرول فقد لبثت في غرفتها بضع دقائق ، وحين خرجت لاحظ سدريك أنها كانت تبكي ، فاندفع إليها يعانقها وقال :

– نحن نحب بيتنا الصغير يا ماما .. أليس كذلك ؟

فقالت بصوت خافت :

– نعم يا حبيبي .. نحبه كثيراً .

وصلوا إلى المرفأ وصعدوا إلى السفينة وهي ذات أشرعة ومداخن عالية تنفث الدخان الأسود ، وكانت الأرصفة تضج بالحركة والأصوات وهتاف المودعين الذين يلوحون بمناديلهم .

وأعجب سدريك بما يراه حوله ، وعزم على الاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة ، وقرر أن يسأل البحارة عن أجزاء السفينة وكيفية عملها دون أن ينسى بالطبع سؤالهم عن القراصنة والجزر المهجورة . ولفت انتباهه ذلك الزحام على السلالم المؤدية إلى الرصيف . وكم كانت دهشته عظيمة وهو يرى صديقه ديك مندفعاً إليه يلوح له بيديه .

قال ديك وهو يعطيه شيئاً ملفوفاً :

– هذه هديتي إليك من عمل الأمس حتى تبدو بمظهر لائق أمام الإنكليز .. يجب أن أذهب قبل أن يرفعوا السلالم فلا رغبة لي بالذهاب إلى إنكلترا .

وبعد قليل رُفعت السلالم وابتعدت السفينة عن الرصيف ، ورأى سدريك صديقه ديك يلوح له بيديه بين زحام المودعين .

فتح اللفافة وإذا فيها منديل أحمر اللون رسمت عليه حدوة حصان بلون بنفسجي ، فوضعه حول عنقه .

وأبحرت السفينة حاملة اللورد فونتروا من مسقط رأسه إلى بلاد أجداده .

الفصل الرابع

إنكلترا



أثناء الرحلة التي دامت أحد عشر يوماً عبر المحيط الأطلسي أخبرت الأم ولدها أنهما لن يسكنا في بيت واحد ، فأحس بحزن شديد لا يكاد يوصف ، ولكنها طمأنته بأنه سيراها كل يوم ، ولم يفهم سدريك السبب الذي يدفع الإنكليز إلى التفريق بين الأولاد وأمهاتهم ، وقالت السيدة إيرول للسيد هافيشام :

– أفضل ألا يعرف السبب ، والأجدر أن يتعرف إلى جده دون أن يدري أنه يكرهني . وهذا يخدم مخطط الكونت أيضاً .

ووافقها الرجل على ذلك ، وكان يقضي أوقاتاً طويلة يحادث فيها سدريك ، يستمتع بكلامه الجاد وملامحه الحلوة وهي تشرق بابتسامة عذبة ، وقال له :

– هل ستحاول محبة جدك ؟

– طبعاً .. لأن على الإنسان أن يحب أفراد عائلته ، وقد أحسن إلي ، وأنا أحب المحسنين ، وخاصة إذا كان المحسن جدي .

– وهل تعتقد أنه سيحبك أيضاً ؟

فأجاب سدريك بثقة :

– حتماً ، فأنا أحد أفراد عائلته .. ولو لم يكن يحبني لما دعاني إلى العيش معه .

سرعان ما شاعت حكاية اللورد الصغير بين ركاب السفينة ، فكانوا يتأملون بحنان هذا الفتى يجري لاهياً وخصلات شعره الأشقر تتطاير في الهواء . وكانوا يلتفون حوله في قاعة الاستراحة يصغون إلى الحكايات العجيبة التي قصّها البحارة عليه ، وكان أحد هؤلاء البحارة يدعى جيري ، وقد روى له ما صادفه في رحلاته في أنحاء العالم من القطب المتجمد حتى الجزر المهجورة حيث يعيش آكلو

لحوم البشر ، وحين يعترض عليه السامعون بأن قصصه لا تكاد تصدق يقول لهم سدريك :

– إن جيري قد قام بمئات الرحلات فاختلطت عليه الأمور ، وقد سلخت جلدة رأسه عدة مرات ، ولذلك ترونه أصلع لا ينبت الشعر على رأسه ، ولكن هذه الحكايات كلها قد شاهدها بنفسه .. وهذا ماقاله لي .

وكان يأسف سدريك لأنه لا يستطيع ترداد هذه الحكاية على مسمع السيد هوبس ، وأصبح سدريك المسافر الأكثر شعبية على متن السفينة .

وبعد أحد عشر يوماً من الإبحار ظهرت في الأفق ذات صباح مداخن مدينة ليفربول . من مساء الغد توقفت العربة أمام منـــزل صغير تحيط به الأشجار يدعى (لودج) وفيها الأم والوالد والسيد هافيشام ، وأما الخادمة الوفية ماري فقد سبقتهم إلى المنـــزل فكانت تنتظرهم أمام العتبة ، فاندفع إليها سدريك قائلاً :

– الحمد لله على سلامتك .

وقالت لها السيدة إيرول بصوت خافت :

– إني فرحة بوجودك معي وكنت سأشعر بالوحدة لولاك .

وصافحت المرأة العجوز بحرارة .

كان الخدم الإنكليز ينتظرون بفضول اللورد الصغير وأمه ، وهم على علم بسخط الكونت على زواج ولده من تلك الأميركية ، وعلى علم أيضاً بطباع الكونت العنيفة التي زاد في عنفها ما يقاسيه من آلام المفاصل ، ويتساءلون كيف ستكون حالة هذا الفتى مع جده .

كان سدريك قد نزع ثيابه وحده ، فهو لم يعتد أن تساعده الخادمة على ارتداء ملابسه ونزعها . وتأمل هذا المنـــزل التي ثبتت على جدرانه اللوحات ورؤوس الحيوانات المحنطة التي صادها جده ، ولم يكن قد رأى مثلها من قبل .

وقال لأمه :

إنه منـــزل جميل .. أليس كذلك ياشيري ؟

وقادته الخادمة إلى غرفة النوم في الطابق العلوي ، فإذا هي واسعة تغطي جدرانها طبقة من القماش الفاتح . ويرقد بجانب المدفأة قطة كبيرة ذات شعر أبيض وفير .

قال سدريك منذهلاً :

– يا له من قط جميل !

فقالت ماري :

– إن خادمة السيد إيرول رحمه الله قد أعدت هذه الغرفة ، وكانت تعرف والدك منذ كنت صغيراً .

وبعد دقائق نزلوا إلى الطابق الأرضي ، فكان واسعاً حسن الأساس ، قد رمي على سجاجيده جلد نمر ، وجلست القطة الكبيرة فوقه وهي تستمتع بمداعبة سدريك لها .

وقالت السيدة إيرول مخاطبة السيد هافيشام :

– لا أرى من الضروري أن يذهب اليوم لمقابلة الكونت .

فقال :

– طبعاً .. سأقابل الكونت على العشاء وأعلمه برجوعنا .

فقالت السيدة إيرول :

– لا أريد من الكونت أن يصرف لي مالاً ، فأنا لدي ما يكفي لأعيش فيه ، وكأنه بذلك يدفع لي ثمن ولدي وهو غاية حياتي .

فحك الرجل ذقنه بإصبعه المعروقة وقال :

– لا أدري كيف سيستقبل الكونت هذا النبأ ، ولا أظنه سيتفهم دوافعك .. ولكني سأخبره بقرارك هذا .

وقُدِّم العشاء ، فجلس الجميع إلى المائدة والقطة مقعية على كرسي بجانب سدريك .



بعد العشاء ، ركب السيد هافيشام عربته ومضى إلى القصر حيث استقبله الكونت ، وكان جالساً إلى أريكة ضخمة بجانب المدفأة وقد مد ساقيه فوق الوسائد ، فنظر إليه نظرات حادة من تحت حاجبيه الكثيفين وقال :

– ها قد عدت يا هافيشام .. كيف جرت الأمور ؟

– على أحسن حال ياسيدي ، وقد وصل الكونت فونترو ووالدته إلى لودج ، وكانت الرحلة مريحة .

فتمتم الشيخ بصوت خافت :

– حسناً .. حسناً .. اجلس ، وماذا أيضاً ؟

– سيبقى اللورد بجانب والدته هذه الليلة وسآتي به غداً .

– لا تحدثني عن أمه ، ما هي أخبار الولد ؟

فقال هافيشام بهدوء :

– من الصعب الحكم على طفل عمره ثماني سنوات .

فقال الكونت وقد قطب حاجبيه :

– لا ريب أنه فتى أحمق سيئ التربية مثل الأميركان جميعاً ، وتستطيع أن تلمح هذا في وجهه ، أليس كذلك ؟

فأجابه بلهجة حازمة :

– لا .. ياسيدي ، فقد ترك لي الطفل انطباعاً حسناً .

ولم يشأ أن تتكون لدى الكونت فكرة مسبقة عن الطفل ، فسعى إلى الدفاع عنه ، ولكن بكثير من الحذر . فسأله الكونت :

– وكيف حالته الصحية ؟

– أراه موفور الصحة قوي البنية بالنسبة لمن هم في مثل سنه ، وهو فتى جميل المنظر ، وستراه مختلفاً عن الأولاد الإنكليز .

فدمدم الشيخ متألماً من مفاصله وقال :

– لقد سمعت عن تربية الأميركان لأولادهم ، فهم يفسدونهم تماماً .

فقال هافيشام :

– لم ألمح هذا لدى اللورد .. والحق أنه عاش بين الكبار وهو يتصرف بطريقة مختلفة عن الأطفال .

– هذا كله معروف لديهم .. والنتيجة أنهم يسيئون تربية أولادهم .

وكان هافيشام يعرف أن الكونت لا ينبغي مجادلته حين تؤلمه مفاصله ، فلم يوغل في هذا المنحى ، ولكنه أضاف بلهجة محايدة :

– إن السيدة إيرول تبلغك رسالة منها .

– لا أريد أن أسمع بهذه المرأة ولا برسالتها ، لتحتفظ بها لنفسها .

– ولكن من المهم أن تعرف يا سيدي أنها ترفض ما خصصت لها من مصروف .

فاحمر وجهه غضباً وصاح :

– كيف ؟ ترفض المصروف ؟ من تحسب نفسها ؟ آه .. تريد إيهام الناس أنني سآخذ ولدها وأرميها إلى الطريق ، تريد أن تلعب دور الضحية وأكون أنا المتهم . لا .. يا هافيشام . ستأخذ هذه المرأة المصروف شاءت أم أبت .. هذا القول الفصل !

– لن تأخذه يا سيدي .

– هذه مسألة تخصها .. ولا ريب أنها غيّرت قلب حفيدي علي !

– لا يا سيدي .. على العكس ، إنها تتمنى ألا يعرف الفتى سبب سخطك عليها .

فالتمعت عينا الكونت دهشة وقال :

– كيف ؟ الولد لا يعرف شيئاً عن هذه القضية ؟

– نعم يا سيدي .. والولد يعتبرك الجد المثالي ، رجل البر والإحسان ، ويتوقع منك العطف والحنان .

– هذا عجيب !

فتشجع هافيشام وأضاف قائلاً :

– إن الأمر بين يديك الآن يا سيدي الكونت ، فالفتى يجهل كل شيء عن خلافك مع المرحوم والده والسيدة والدته ، وإذا أردت أن تكسب حبه فلا تذكر والدته بشرّ .

– إنه فتى صغير لا يتجاوز ثماني سنوات !

– ولا تنس يا سيدي الكونت أنه مولع بوالدته ، وقد أمضى ثماني السنوات مستمتعاً بحنانها .

الفصل الخامس

قصر دورنكور

قُبيل انقضاء النهار جاءت العربة لتنقل اللورد فونتروا إلى مقابلة جده الكونت دون أن يرافقه أحد سوى السيد هافيشام .

وأعجب سدريك بداخل هذه العربة المبطنة بالمخمل ، وتأمل الخيول اللامعة التي تقودها ، وسأل السائق عن هذا الشعار المرسوم على بابها ، فقال له إنه التاج الخاص بالكونتات شعاراً لهم .

وحينما دخلت العربة الحديقة ومشت فوق الممر المفروش بالرمل ، أطل رأسه من النافذة يتفرج على هذه السّباع الحجرية التي تزين الدرج . وفتحت الباب خادمة بملابس الفلاحين ، وجرى

لرؤيته ولدان صغيران ، وانحنى الجميع لدى مروره بهم . وتساءل سدريك كيف عرفوه ، ولكنه رفع قبعته وحياهم قائلاً :

– صباح الخير .. كيف الحال ؟

فقد تعلم أن يرد التحية بأحسن منها . وفرحت المرأة بتهذيبه فصاحت :

– حماك الله يا سيدي .. أهلاً بك في دورنكور !

فالتفت إلى السيد هافيشام وقال له :

– إن هذه السيدة شديدة اللطف ، وكذلك ولداها .. إنهما في صحة جيدة .

ولم ير السيد هافيشام فائدة في أن يخبره أنهما ولدا البوابة ، وأنه لا يسمح له بالاختلاط بهما واللهو معهما فهما ليسا من طبقته .

وحين دهش سدريك لطول المسافة ما بين باب الحديقة والقصر ، قال له السيد هافيشام إن قصر دورنكور من أكبر قصور إنكلترا ، وإن الأشجار المحيطة به عمرها مئات السنين ، وأضاف :

– ما بين البوابة والقصر حوالي ثمانية كيلو مترات .

فقال سدريك :

- يا لها من مسافة بعيدة ما بين المسكن والباب .. وكيف يعلم بوصول الرسائل ؟

ووثب فجأة وهو يهتف متعجباً :

- انظر إلى تلك الحيوانات هناك .. هل يوجد سيرك في المنطقة ؟

وشرح له السيد هافيشام أن هذه الحيوانات من الأيائل المستأنسة ، وهي تعيش في غابة القصر منذ أجيال .

بعد قليل وصلت العربة إلى القصر ، وهو بناء ضخم على شكل مربع ترتفع فوقه الأبراج ويعود إلى عهد النهضة ، وفيه عدد كبير من النوافذ التي يلمع زجاجها تحت أشعة الشمس الغاربة .

فقال اللورد الصغير معبراً عن إعجابه :

- إنه أجمل بيت رأيته في حياتي ، لقد رأيت مثله في الكتب ولم أكن أظن أنه موجود في الواقع ، كأنه قصر أحد الملوك ، إنه أجمل من البيت الأبيض في واشنطن .

فوق درجات السلم الحجري اصطف الخدم جميعاً لاستقبال اللورد الصغير الذي يطأ أرض أسلافه لأول مرة في حياته ، ولا تستطيع أن تتخيل دهشته وهو الذي كان جالساً قبل أسبوعين فوق علبة بسكويت في حانوت السيد هوبس الجمهوري الذي يكره النبلاء جميعاً .

وابتسم الخدم جميعاً للقائه ، فحياهم بابتسامة واسعة . وفي نهاية السلم الحجري قرب الباب استقبلته سيدة متقدمة في السن ترتدي ثوباً من الحرير الأسود ، وكان السيد هافيشام ممسكاً بيده وقال مخاطباً المرأة :

- سيدة ميلون ، أقدم لك اللورد فونترو . السيد اللورد فونترو ، أقدم لك السيدة ميلون مدبرة قصر دورنكور !

فقال سدريك :

- آه يا سيدتي .. أنت التي أرسلت لي القطة البيضاء الجميلة ؟ كيف حالك ياسيدتي ؟

ومد إليها يده مصافحاً ، فأشرق وجهها بابتسامة مبتهجة وقالت :

– أستطيع أن أتعرف على سيدي لأنه صورة طبق الأصل عن والده حينما كان في عمره ، إنه يوم سعيد لنا جميعاً .

وتوجهت إلى السيد هافيشام قائلة :

– لقد تركت القطة هرتين صغيرتين في القصر ، وسوف أنقلهما إلى شقة سيدي اللورد .

ثم همست له بصوت خافت :

– إنه في المكتب ينتظر اللورد فونتروا ، ويجب أن يدخل وحده .

واصطحبه الخادم المكلف بالتشريفات عبر غرف واسعة كثيرة ، فكان يتأملها مندهشاً جزعاً حتى وصلا إلى أحد الأبواب ، فنقره نقراً خفيفاً وأعلن بصوت جهوري :

– لورد فونتروا ، يا سيدي !

دخل سدريك الحجرة دون أن يبصر أحداً ، وكانت الأرضية الخشبية لامعة والأثاث من الخشب الثقيل المحفور ، وقد اصطفت على الرفوف الكتب المجلدة البراقة . وأما النوافذ فهي مرتفعة ضيقة غائرة في الجدران لا تسمح إلا بالقليل من النور .

ورأى بعد قليل رجلاً جالساً فوق مكتبة ضخمة وقدماه ممدودتان فوق الوسائد ، وظهره إليه . والشيء الوحيد الحي الذي أبصره هو كلب ضخم أحمر اللون نهض بشموخ ومشى إليه بوقار فتشممه ، حينئذٍ ارتفع صوت خشن يصيح :

– دوغال .. إلى هنا !

ولم يكن لورد فونتروا ليخاف الكلاب ، فقد ألف اللعب معها في حارته ، فوضع يده على رقبة الكلب وتقدم نحو الكنبة مبتسماً . فرفع الكونت رأسه فجأة ، فرأى سدريك شيخاً نحيلاً أبيض الشعر أبيض الشاربين كثيف الحاجبين ، أنفه معقوف كأنف الصقر ، وعيناه الحادتان بلون الفولاذ غائرتان في محجريهما .

ورأى الكونت رأس فتى يبزغ من العتمة أشقر الشعر ، مرتدياً بذة سوداء من المخمل وياقة بيضاء من الدانتيلا يتقدم نحوه غير هائب ، ويده على طوق الكلب الضخم .

وأمسك الكونت أنفاسه وقد اجتاحته عاطفة لا تقاوم من الفرح والفخر اضطرب لها فؤاده ، ولم يتخيل أبداً أن يكون ابن

تلك الأميركية في صورة أمير صغير نبيل الطلعة بهي القسمات ، لا يخاف كلب نزال يخشاه الرجال .

وسأله سدريك :

– هل أنت جدي ، الكونت ؟ إني حفيدك الذي جاء به السيد هافيشام من أميركا ، إني اللورد فونترو .

ومد يده بطريقة مهذبة ، وتابع :

– كيف حالك ؟ إني سعيد بلقائك .

لم يدر الكونت الشيخ ما يقول ، ووجد صعوبة في لم شتات أفكاره بعد هذا الدخول المفاجئ .

– تقول .. إنك سعيد .. بلقائي ؟

فجلس سدريك على أحد الكراسي وجعل يرجّح قدميه :

– نعم .. شديد السعادة .

وتأمل جدَّه بنظرات امتزج فيها الفضول بالعزيمة بالانتباه .

– وكنت أتساءل أثناء الرحلة كيف تكون .. وهل تشبه والدي .

فسأله الكونت :

– وهل أشبهه ؟

– لا أذكره لأنني كنت صغيراً حين وفاته كما تعلم ، وأظنك لا تشبهه كثيراً .

فقال الكونت :

– وهل هذا يزعجك ؟

فسارع سدريك إلى القول :

– لا .. أبداً .. فحب الجد واجب وإن كان لا يشبه الوالد .. ثم إن حب العائلة من أعظم الواجبات .. أليس كذلك ؟

فاستند الكونت إلى الكنبة وفكر :

– حب العائلة ؟ يا لها من فكرة غريبة ! لقد قضى شطراً من حياته النبيلة في الشجار معها وطرد أفرادها من قصره واكتساب كراهيتهم .

فأضاف لورد فونترو بصوت واثق :

– وكيف لا يحب الفتى جده ، وخاصة أن هذا الجد ألطف الناس معه ؟

فالتمعت عينا الكونت وهو يسأل :

– وكيف كنت لطيفاً معك ؟

– حين أحسنت إلى بريجيت وديك وإلى بائعة التفاح .. وإني أنقل شكرهم إليك .

فقال الكونت :

– عفواً .. من هؤلاء الناس ؟

– إنهم أصدقائي الذين أعطاني السيد هافيشام النقود من أجلهم .

– آه .. النقود ! وماذا اشتريت بها ؟

وكان الكونت يتشوق لمعرفة الطريقة التي أنفق بها الطفل هذه الأموال ، فلم يبخل عليه بتفاصيل حالة ميخائيل العاجز عن العمل وبريجيت البائسة .

ونظر الكونت بطرف عينه إلى دوغال ، وهو حيوان رهيب لا يعرف اللهو ولا يصادق أحداً سوى سيده ، فإذا هو يضع عنقه على ركبة سدريك الذي كان يدغدغ أذنيه ، فكان الكلب يشعر بسعادة غامرة .

وأحس الكونت بأن حفيده لا يفتقر إلى الشجاعة . ثم تابع حديثه عن طريقته في إنفاق النقود بأن جذب من جيبه المنديل الذي أهداه له ديك ، ووصف له السيد هوبس وبائعة التفاح .

لم يكن الكونت يحب الأطفال ، حتى أطفاله لم يشعر نحوهم بأية عاطفة ويعتبرهم مثل الحيوانات الصغيرة التي تحب نفسها وتسبب الضوضاء ، فينبغي لها أن تخضع لنظام قاس وتربية عنيفة ، فلِمَ أرسل في طلب حفيده من أميركا ؟ لكي يربيه تربية لا تسيء إلى العائلة التي سيرأسها ذات يوم ، وكل ما يرجوه أن لا تكون أخلاقه قد أعطبها الفساد ، بحيث لا يستطيع تقويمها .

ولكن ها هو ذا أمام أمير صغير ، تشيع رؤيته في نفسه البهجة وتبعث السرور ، والأروع من هذا كله أنه لا يخشاه ، ويحادثه كأنه يعرفه منذ زمن طويل ، وهو الذي ترتجف لرؤيته الرجال ، ويجتنبون لقاءه لما عرف عنه من نزق وحدة مزاج .

والمؤسف أن هذا الصغير الذي يحدق في عينيه غير خائف ، يظنه مثال الشهامة وكرم الأخلاق والجود ، وهو الذي لم يخفف الحزن عن إنسان في حياته الطويلة كلها .

فكان لهذا الحديث هزة ارتعدت لها روح الكونت ، وأصغى إلى حفيده يحدثه عن انتخاب رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة الأميركية ، ويصف له استعراض المشاعل وسواه .. ولكنه توقف فجأة وأحس بالحرج .

فسأله جده :

– حسناً .. كنت تحدثني عن الثورة الأميركية وإعلان الاستقلال !

فقال سدريك متردداً :

– خطر لي أنه من غير المناسب أن أحدثك عن حرب الاستقلال ، فلعلك فقدت أحد أفراد عائلتك فيها !

فابتسم الكونت لأول مرة نصف ابتسامة ارتسمت على شفتيه اليابستين ، وقال :

– أكمل .. لم يكن لنا أحد في أميركا أثناءها .. ولكنك تنسى أنك إنكليزي أيضاً .

فقال سدريك :

– لا .. إني أميركي .

فقال الكونت بحزم :

– كان أبوك إنكليزياً .. وأنت إنكليزي أيضاً .

فقال سدريك بلا تردد :

– ولكني ولدت في أميركا .. وكل من يولد في أميركا فهو أميركي .

ثم تذكر أنه يكلم جده فقال مسارعاً :

– اعذرني إذا خالفت رأيك .. ولكن السيد هوبس أكد لي أنه إذا نشبت حرب بين إنكلترا وأميركا ، فينبغي لي أن أكون في الجيش الأميركي .

وابتسم الكونت ابتسامة صغيرة هذه المرة . كان يكره تبجح الأميركيين ، ولكنّ تمسك هذه الفتى برأيه قد أعجبه ، ولأنه كان أميركياً صالحاً فإنه قادر على أن يجعله إنكليزياً مخلصاً .

وقطع الحديث دخول الخادم يعلن عن موعد العشاء ، فهبط سدريك من الكرسي ، على حين استمسك جده بيد الكنبة لكي يضع على الأرض قدمه المريضة ، فسأله على استيحاء :

– هل يمكنني مساعدتك .. تستطيع الاستناد إلى كتفي .. لقد ساعدت السيد هوبس حين سقطت علب السردين على قدمه واستند إلى كتفي .

وكاد الخادم ينفجر في ضحكة تهدم مستقبله المهني كله ، وهو يعلم أن منصبه في القصر يقتضي منه الرزانة والهدوء ، وممنوع عليه إصدار الضجيج أو الابتسامة أثناء الخدمة ، فاستعاد اتزانه .

وأدهش هذا المشهدُ الكونت فتأمله من رأسه إلى قدميه ، إنه صغير حقاً .. فسأله بصوت خشن :

– وهل تقدر على ذلك ؟

– طبعاً .. عمري ثماني سنوات كما تعلم .

وكاد الخادم يختنق بضحكة جديدة لولا أنه أدار وجهه إلى إحدى اللوحات البشعة المعلقة في الجدار يتأملها .

فقال الكونت :

– حسناً .. لنحاول .

فناوله سدريك عصاه ثم ساعده على النهوض ، فوضع الكونت يده على كتفه واتكأ بكل ثقله . فشد اللورد الصغير على

أسنانه وضم شفتيه ، ومال بكتفه إلى الجهة الأخرى ، وقد احمر وجهه من الجهد .

وقال بصوت مختنق :

– استند جيداً .. لا يهمك .. إني أتحمل إذا لم تكن المسافة بعيدة ، ولكن هل جربت أن تغطس قدمك بمسحوق الخردل .. يقول السيد هوبس إنه دواء مفيد .

وبدت الرحلة طويلة جداً بالنسبة إلى سدريك .

واتجه الموكب إلى غرفة الطعام : الجد يستند إلى كتف حفيده وهو يرقبه بطرف عينه وقد ارتسمت على قسماته البهجة ، ويتبع الجميع الخادم يغالب ضحكه ويتمنى أن يصلوا قبل أن تحدث الكارثة .

وصلوا أخيراً ، ففتح الخادم المكلف بالمائدة عينيه من الدهشة . وبعد أن استقر الجد في المقعد ، جلس سدريك قبالته على الطرف الآخر من الطاولة وقال : الجو حار هذا المساء أليس كذلك ؟ أنت يلزمك بعض التدفئة طبعاً بسبب قدمك ، وأما أنا فأحس بالحرارة .

وجذب المنديل الأحمر وجفف جبينه ، فقال الكونت :

– ذلك لأنك بذلت مجهوداً كبيراً .

– لا .. هذا شيء لا يستحق الذكر .. ولكن الجو حار .

ولعل سدريك لم يظهر على حجمه الضئيل كما ظهر في هذه القاعة الواسعة ، غارقاً في مقعده الكبير أمام مائدة تتسع لأكثر من أربعة وعشرين شخصاً .

يحب الكونت أن يتناول الطعام منفرداً ، ولكنه حريص على اتباع قواعد اللياقة والسلوك المتعارف عليها ، فيشعل الشموع ويحيط نفسه بالخدم ، ولا يستخدم سوى الأطباق التي رسمت عليها شارة العائلة النبيلة ، ويرى أن تناول الطعام مسألة جادة لا يتهاون فيها .

وتنعكس جدّيتها على الطباخ الذي يتلقى التوبيخ طول السنة لأنه لا يحسن صنع الحساء ، أو لا ينضج الشرائح كما ينبغي لها .

وأما هذه المرة ، فإن الكونت تناول عشاءه دون أن ينتبه إلى ما يأكله ، وعيناه لا تفارقان حفيده ، فلاحظ أن الفتى لا يضع يده



في الطبق ولا يمسح شفتيه بغطاء المائدة ولا يسكب حساءه عليها ، بل يأكل بأسلوب مهذب كما يجب للفتى النبيل .

وسأله سدريك بعد قليل :

– هل يمكنني أن أسألك عن شيء ؟

– نعم .

– تاجك .. لِمَ لا تضعه على رأسك ؟

فدهش الكونت فعلاً وقال :

– تاجي ؟ آه .. تاجي .. لا أضعه إلا في بعض الأحيان ..

وتبادل الخادمان النظرات ثم رفعا وجهيهما إلى السقف .

ثم أضاف الكونت بعد قليل :

– ولا تنس أن التاج لا يناسبني .

فسارع سدريك إلى القول :

– على العكس .. إنه يناسبك في هذا القصر الواسع .. وإنه لأجمل قصر رأيته في حياتي .. ولكن عمري ثمان سنوات ولا أعرف أشياء كثيرة .

فقال الكونت وهو يحدق فيه :

– وهل يمكنني أن أفخر به ؟

– آه طبعاً .. الحدائق والحيوانات وكل شيء فيه ، ولكنه واسع بالنسبة إلى شخصين فقط ، ولكن عليهما أن يكونا متفاهمين ..

– ولِمَ تقول هذا ؟ هل تظننا سنختلف ؟

– لا .. ليس قصدي أن أشير إلى الاختلاف ، فأنا سريع التلاؤم مع الناس كما حدث مع السيد هوبس أعزّ الناس إليّ بعد (شيري) .

– شيري ؟ ومن تكون ؟

فقال سدريك بصوت مكسور :

– إنها .. إنها أمي .

ولا ننس أنه يفارقها لأول مرة ، وقد أرهقه السفر ، وهذا الحديث الطويل مع جده الذي لا يكاد يعرفه .

بعد انتهاء العشاء لاحظ الكونت أن سدريك أقل حماسة من قبل . وعاد الجد إلى المكتبة متكئاً على أحد الخدم ، وجلس

الكونت في الكنبة وقعد سدريك أمام المدفأة يداعب أذني الكلب الذي يهرّ هريراً مرحاً ، وتأمله الجد برهة ثم قال :

– بأي شيء تفكر يا فونتروا ؟

فقال :

– أفكر بشيري .. ولا أظنني سأبقى جالساً .

ثم نهض يتمشى في الغرفة الواسعة والكلب يتبعه خطوة خطوة ، ووضع يده إلى رأس الكلب وقال :

– إنه كلب رائع فعلاً .. يدرك ما أفكر فيه .

– وبم تفكر ؟

– أفكر بأنني سأنام بعيداً عن أمي .. ولكنني أستطيع رؤية صورها .

ومد يده إلى جيبه وأخرج علبة صغيرة عليها صورة والدته ، واتكأ على مسند الكنبة وكتف جده وقال :

– أليست الصورة رائعة ؟

فقطب الكونت حاجبيه لأنه لا يريد رؤية صورها ، ولكنه نظر إليها كالمضطر ، وارتعد للشبه الكبير بينها وبين سدريك .

وسأله فجأة :

– هل تحبها ؟

فقال سدريك بافتخار :

– طبعاً .. وخاصة بعد أن توفي والدي .. يجب أن أعمل لأعيلها وأسهر على حمايتها .

– وأي عمل ستختار حينما تكبر ؟

فقال اللورد بتردد :

– لم أقرر بعد .. ولكني أفضل أن أكون رئيساً للولايات المتحدة .

فقال الكونت مبتسماً :

– قد أُرسلك إلى مجلس اللوردات بانتظار ذلك .

فقال سيدريك مهموماً :

– لا أعرف ما مجلس اللوردات .. ولعله عمل مفيد .. لِمَ لا ؟ لا يستطيع الجميع أن يكونوا رؤساء للولايات المتحدة .

بعد نصف ساعة دخل الخادم ليعلن عن قدوم السيد هافيشام ، فوضع إصبعه على شفتيه يأمره بالسكوت ، لقد كان

يتأمل هذا الوجه الملائكي وقد انعكس عليه ضوء المدفأة ، وهو نائم بجانب الكلب الضخم ، يحلم بحياته الجديدة .

الفصل السادس
الجد والحفيد



حينما استيقظ سدريك صباح الغد لم يفتح عينيه حالاً ، إذ كان يسمع صوت النار في المدفأة ، وأصوات نساء يتحدثن همساً .

قالت المرأة :

– لا تتحدثي عن ذلك يا داوسون لأنه لا يعرف سبب إبعاده عن أمه ولا ينبغي له أن يعرفه .

وقالت امرأة أخرى :

– إذا كانت هذه أوامر السيد فلا بد من إطاعتها ، ولا أعرف رأيك يا سيدة ميلون ، ولكني أرى من القسوة إبعاد الطفل عن والدته ، وهو كما قال لي جيمس وتوماس يتصرف كالرجل الناضج ، ويحادث جده كأنه صديقه منذ زمان طويل ، وأعتقد أن

جده يحس نحوه بحب عميق يحاول إخفاءه ولا ينجح ، لأن جيمس قد حمل الطفل بين يديه لينقله إلى فراشه . فقال له الكونت :

– احذر يا جيمس وإياك أن توقظه .

تحرك سدريك في سريره وفتح عينيه . كان في حجرة جميلة الألوان واسعة تحيط بها الستائر من كل جانب ، والشمس مشرقة خلف النافذة وأغصان الأشجار تتهدل على زجاجها .

ورأى في الحجرة امرأتين إحداهما السيدة ميلون والأخرى امرأة كهلة ذات ابتسامة لطيفة ، وقالت له السيدة ميلون :

– صباح الخير يا سيدي .. هل نمت جيداً ؟

فقال سدريك وهو يعتدل في جلسته :

– شكراً لك .. ولكن أين أنا الآن ؟

– لقد غفوت البارحة في المكتبة ونُقلت إلى غرفتك .. وهذه السيدة داوسون التي ستهتم بأمرك منذ اليوم .

فمد يده إليها قائلاً :

– كيف حالك ؟ شكراً لعنايتك بي يا سيدتي .

قالت السيدة ميلون :

– تستطيع أن تناديها داوسون .. الجميع ينادونها كذلك ، هل تريد أن تنهض الآن يا سيدي كي ترتدي ثيابك ؟ ثم تتناول طعام الإفطار ؟

– أشكرك .. ولا أحتاج إلى مساعدة أحد لارتداء ثيابي ، فأنا كبير الآن .. وأعتمد على نفسي منذ زمن طويل .

وتبادلت المرأتان النظرات ، وقالت داوسون :

– حسناً يا سيدي .. ولكني سأبقى هنا .. فقد تحتاج إلى شيء .

– شكراً لك .. والواقع أني أجد صعوبة في تركيب ياقتي .

وما كاد ينتهي سدريك من غسل يديه وارتداء ثيابه حتى أصبحا أعزّ صديقين ، وعرف بعدئذٍ أن زوجها جندي في الجيش الملكي ، وقد قُتل في إحدى المعارك ، وأن ولدها بحار تنقل في أنحاء الدنيا ورأى القراصنة والصينيين والأتراك ، وجلب من أسفاره أنواعاً نادرة من الأصداف والمحارات ، أطلعت عليها اللورد الصغير في أول مناسبة سنحت لها .

كانت الحجرة المجاورة مخصصة للطعام ، فوجدها واسعة وقال :

– كل هذه الغرف لي وحدي ؟ إنها فسيحة جداً ..

فقالت له داوسون :

– لقد اختلف عليك الإقليم .. وسرعان ما تعتاد الإقامة هنا .. وسوف ترى أن القصر رائع .

– نعم .. لا ريب أنه قصر رائع ، وأتمنى أن تكون شيري معي .. هذا اسم أمي .. وكنت أتناول الفطور معها دوماً .. وأشعر بالكآبة وأنا أتناول وحدي .

فقالت داوسون بصوت مرح :

– سترى أمك كل يوم .. وستحكي لها أشياء كثيرة .. وانتظر حتى ترى إصطبل الخيول والكلاب . إن في الإصطبل حصاناً سيعجبك حتماً .

فقال سدريك :

– حقاً ؟ إني أحب الخيول .. وكان لدى السيد هوبس حصان يجر العربة ، ولكنه هرم ويعرج قليلاً ..

– إن عندي لك مفاجأة بعد الفطور .

فأسرع سدريك في تناول طعامه ونهض واقفاً ، فمشت به داوسون إلى الغرفة المجاورة وفتحت بابها ، فوقف ويداه في جيبه وهو ذاهل من المفاجأة . والحق أن المشهد الذي أمامه يذهل له أيّ فتى صغير ، إذ أن الغرفة مملوءة بالدمى واللُّعب والتماثيل الميكانيكية مما كان يراه في واجهات نيويورك ، وأما الجدران فكانت محاطة برفوف من الكتب المجلدة باللون الأحمر .

فقال :

– آه .. هذا رائع ..

واندفع إلى الغرفة وهو يكاد يطير فرحاً .

وأمضى نهاراً ممتعاً يتفحص هذه العجائب المعروضة أمامه ، ولم يكن لديه الوقت الكافي للعب بها كلها وتفحّص دقائقها ، وكانت الكتب كلها مفتوحة على البساط والفوضى شاملة .

والتفت إلى داوسون وقال لها :

– هذا بفضل جدي .. هل تعرفين يا داوسون جداً كريماً مثل جدي ؟

فهزت داوسون رأسها ولم تجبه ، فهي لم تكن في القصر منذ زمن طويل ، وقد جيء بها للعناية بالطفل فقط ، ولكنها سمعت من توماس حكاية الكونت وأبنائه وحفيده ، وذكر لها أنه حضر حديثاً بين الكونت وهافيشام ، فقال له :

– أعدّ له غرفة مملوءة بالدمى واللعب من كل صنف ، واجلب له كل أنواع الكتب ، وقدم له ما يشاء ، فلا تنقضي ثمانية أيام حتى ينسى أمه ولا يعود يذكرها على لسانه ، ولا نتعرض لمشكلات معها ، هكذا الأطفال ..

ولكن الكونت لم يلبث أن أدرك أنْ ليس كل الأطفال سواء ، وأن سدريك يختلف عنهم جميعاً . وقد أمضى الكونت ليلة سيئة لم يغمض فيها جفنه ألماً ، وأرسل في طلب حفيده بعد الفطور ، فدخل إلى القاعة وشعره يتطاير في الهواء وخداه محمرّان ، وقال لجده وهو لاهث متقطع الأنفاس :

– كنت أنتظر دعوتك لي بفارغ الصبر لأشكرك على هذه الدمى واللعب والكتب ، ولم أطّلع عليها كلها بعد .. شكراً لك يا جدي .

وارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهه الحزين وقال :

– هل أعجبتك ؟

– آه .. كثيراً .. وهنالك لعبة تشبه (البيزبول) وفيها بيادق بيض وبيادق سود ، ويحسب النقاط بالبيادق الحمر ، وقد حاولت أن أعلّم داوسون هذه اللعبة فلم أنجح .. فهل تلعبها معي ؟

فقال الكونت : لعلها لعبة (الكريكيت) مبسطةً ..

– ربما .. وهي شبيهة بالبيزبول .. ولكنها سهلة .. هل آتي باللعبة ، وسأشرحها لك لعلك تنسى قدمك إذا تسليت ! وكيف حالها اليوم ؟

– أسوأ مما أتمنى !

– آه .. لن تنساها إذن .. أم أنك لا تحب أن أشرحها لك ؟

فقال الكونت بصوت حائر بين الموافقة والنفي :

– هيا .. هاتها وسوف نرى .

فانطلق سدريك صائحاً : سأعود في الحال .

بعد نصف ساعة كان الكونت الهرم غارقاً في منافسة مع حفيده الذي شرح له قواعد اللعبة ، ولكي يحفظها جيداً لعب



شوطين أمامه ، وفسّر له دقائق لعبة البيزبول ، ولو قيل للكونت قبل أسبوع إنه سيخوض مباراة حماسية مع حفيده في هذه اللعبة الأميركية لأحس بالمهانة ، ولكنه ها هو ذا الآن قد نسي آلام قدمه ، ولم ينهض من مكانه حينما أعلن توماس عن دخول القس إلى الحجرة . وقد دهش القس ولم يصدق ما تراه عيناه ، فتراجع خطوة إلى الوراء واصطدم بتوماس الواقف خلفه .

لقد كانت زيارة القصر واجباً ثقيلاً على نفس القس (موردنت) ، لأن صاحب القصر لا يعدم وسيلة يعكر بها صفو مزاجه ، ويصم أذنيه عن نداء الإحسان ، ولا يتصدق على الفقراء والمعوزين إلا بعد أن يلقي على القس خطاباً في الاقتصاد ومحاربة التبذير . فإذا كانت قدمه تؤلمه ذلك اليوم فلا أمل للقس في أن ينال جنيهاً واحداً ، ولكنه يتصرف واللعنات تلاحقه ، وأما إذا خف ألم قدمه فقد يتصدق بشيء من المال بعد أن يذكّره القس بحق الفقراء عليه وما ينتظره في الآخرة من الثواب . ومهما يكن الأمر فإنه لم يفك صرّة نقوده طائعاً ولا مبتسماً ، ولا يدفع المال إلا بعد أن يتمنى القس له أو لنفسه الهلاك العاجل .

ذلك اليوم ، كان القس منــزعجاً لأنه قَدِم من أجل حالة طارئة ، وهو يعلم أن داء المفاصل قد اشتد بالكونت ، ولكن كيف عرف أن المرض قد اشتد به ؟ الجواب بسيط ، لأن إحدى خادمات القصر تحكي لأختها السيدة (ديبل) ما يحدث فيه ، والسيدة ديبل هذه مشهورة بأنها أعظم ثرثارة في المنطقة وتنقل الأخبار دون أن تنال عليها أجراً .

ثم إن القس (موردوت) قد علم بقدوم اللورد الصغير من أميركا .. وساءل نفسه كيف يكون استقبال الكونت له ، وهيّأ نفسه للتدخل إذا اقتضى الحال .

كان الكونت يظن أن حياته الخاصة خافية عن سواه ، ولكنه لا يعلم أن الخدم مطّلعون على دقائقها ، وأن السيدة ديبل كفيلة بنشرها بسرعة البرق وإطلاع القرية عليها ، وقد وصله نبأ قدوم اللورد الصغير عن طريق القرية ، فسارع إلى القصر وهو يتخيل الصورة البشعة التي سيستقبل بها الكونت حفيده ، لذلك تراجع مذهولاً وهو يسمع صوت الطفل يقول فرحاً :

– سجلت عليك نقطتين .. أنت قليل الحظ يا جدي !

فقال الجد وهو يرفع أنفه عن اللعبة :

– أه .. هذا أنت يا موردوت ؟

ومد يده إلى القس وهو أقل كآبة مما تعود أن يراه وقال :

– ألا ترى أن الإنسان يتعلم مهما تقدم به العمر ؟

ثم وضع يده على كتف سدريك وقال بفخر :

– أقدم لك لورد فونتروا الصغير ، هذا هو القس السيد موردوت .. يا فونتروا !

فنهض فونتروا ومد يده إلى القس وقال :

– تشرفت بمعرفتك يا سيدي .. آمل أن نلتقي كثيراً !

وكانت هذه العبارة ألطف ما يقال لرجل دين كما علمه السيد هوبس .

واحتفظ القس بيد سدريك لحظة وهو يتأمله ، لقد أعجبه من الوهلة الأولى ، وقال :

– وأنا تشرفت بمعرفتك أيضاً يا لورد فونتروا .. كيف كانت رحلتك ؟

وطلب منه الكونت الجلوس ، فقال القس وهو يتخذ مقعداً :

– أعتقد يا سيدي الكونت أنك تستحق التهنئة على هذا العضو الجديد في العائلة .

فقال الكونت فرحاً :

– إنه يشبه والده .. والآن قل لي ما جاء بك ؟ من ساءت أحواله هذه المرة ؟

فاستغل القس حالة المرح التي انتابت الكونت وقال له :

– إنه الفلاح (هيكنـــز) ، لقد مرض في الخريف ولداه بالحصبة ، وليس فلاحاً ممتازاً ، أعترف بذلك .. ولكن أصابه سوء الحظ أيضاً ، وقد هدده المحاسب بالطرد إذا لم يدفع الأجرة ، وجاءني البارحة يرجوني أن أراك لتمهله بعض الوقت لعله يستدرك ما فاته .

فقال الكونت :

– كلهم يرددون الكلام نفسه .

وكان سدريك يتابع الحديث باهتمام ، فقال القس مدافعاً عن الفلاح لعله يليِّن موقف الكونت :

– وهيكنـــز فلاح شهم يا سيدي الكونت .

– ولكن المحاسب أكّد لي أنه لا يحسن الفلاحة ، وهو متأخر في الدفع على الدوام .

– بلا شك .. ولكنه إذا طُرِد مات جوعاً هو وعائلته ، وقد وصف له الطبيب اللحمَ والطعامَ المغذي ، فكيف يشتريه ؟

فتقدم سدريك خطوةً إلى الأمام وقال :

– إنها حالة ميخائيل تماماً .

فقال الكونت وقد التفت إلى حفيده :

– آه .. نسيت أن لدينا هنا أحد محبي البشرية .. ومن ميخائيل هذا ، أرجوك ؟

– إنه زوج بريجيت الذي تصدقت عليه بمالك .

ولمح القس بريقاً من الرضى في عيني الكونت وهو يقول :

– لا أتخيله ملاّكاً ناجحاً .. تصور أنه تصدق بما أرسلت إليه من مال على جماعة من المتسولين .

فقال سدريك :

– ليس ميخائيل متسولاً .. إنه بنّاءٌ ماهر تتقاطر عليه الطلبات .

– طبعاً بناء ماهر وماسح أحذية شاطر وبائعة تفاح رائعة .

ونظر إلى حفيده برهة ثم سأله :

– قل لي يا فونتروا .. ماذا تفعل في حالة هيكنــز ؟

وسال العرق البارد من جبين القس ، فيالها من نزوة عارضة أن يجعل الكونت مصير الناس بين يدي طفل في الثامنة من العمر !

وتأكد له أن هذا الفتى سيؤثر في قرارات جده ، ومن ثَمَّ سيكون مستقبل الفلاحين بين يديه ، وانتظر قلقاً ما سيفعله اللورد الصغير .

وأعاد الكونت عليه السؤال :

– ماذا ستفعل يا فونتروا ؟

فاقترب الطفل من جده وقال باتزان وهو يضع يده على ركبته :

– لو كنت غنياً لسمحت لهيكنــز أن يبقى الوقت الكافي ليستدرك ما فاته وأعطيته ما يقيم أود أولاده .. ولكني لا أملك شيئاً .

ثم ابتسم وهو يخاطب جده :

– ولكنك تستطيع أن تفعل شيئاً .

– كيف ؟

– أن تتصرف بثروتك كما تشاء .. ولكن من يعطي الأوامر إلى المحاسب ؟

– أنا طبعاً ..

– اكتب إليه إذاً ليمهل هيكنــز .. هل آتيك بورقة وحبر ؟ وسوف أرفع اللعب عن الطاولة .

ولم يجرؤ القس على التنفس ، وسأل الكونت حفيده وهو يحدق فيه :

– وهل تحسن الكتابة أنت ؟

– طبعاً .. يعني تقريباً .. الإملاء صعب علي قليلاً .

فطلب الكونت من الخادم أن يأتيه بورقة وريشة وحبر ويرفع اللعبة عن الطاولة ، ثم التفت إلى سدريك وقال له :

– هيا يا نصير الإنسانية .. اكتب رسالةً إلى المحاسب .

فاحمر وجه الطفل وقال :

– وماذا أقول فيها ؟

– اكتب ما معناه : لا تهتم بهيكنــز وأعطه مهلةً ، ثم وقّع باسم فونتروا .. هذا كل شيء .

فغمس فونتروا الريشة في المحبرة وانصرف إلى الكتابة وقد عض على لسانه ، وكان عملاً جاداً شاقاً ، وبعد خمس دقائق دفع إلى جده ورقةً وقال له :

– هل هذا يكفي ؟

وبعد أن قرأها الجد قال :

– هذا حسن .

ثم مد الورقة إلى القس ، فقرأ فيها (بعد تصحيح بعض الأخطاء) :

(السيد المحاسب ..

أرجوك أن تعطي السيد هيكنــز مهلة ولا تطالبه بالمتأخر .. وأشكرك كثيراً .

مع احترامي وتقديري .

فونتروا)

وهذه العبارة الأخيرة مدين بها للسيد هوبس الذي كان يختم بها رسائله .

وتساءل سدريك بصوت خائف :

– هل غلطت ؟

فقال الكونت بلهجة ممازحة :

– قليلاً .. ولكنها أغلاط بسيطة .

– سأنسخها من جديد .. والسبب أنه ليس لدي قاموس .

حينما انصرف القس موردوت من القصر كان يحس بالسعادة البالغة لحصوله على ما يبتغيه ، وقد توسم الخير في هذا الفتى ورأى أن مستقبل المنطقة سيكون مزدهراً على يديه .

قال سدريك لجده :

– هل أستطيع رؤية شيري الآن ؟

فسكت الكونت لحظة ثم قال :

– يجب أن ترى شيئاً في الإصطبل .

– ولكن علي أن أرى شيري الآن ، وإلا أخرتك عن تناول العشاء .. ولا ريب أنها تتشوق لرؤيتي .

– كما تشاء .. وأنت يا جيمس أسرجه !

ثم أضاف دون أن ينظر إلى سدريك :

– إنه (بوني) .. حصان قزم !

فهتف سدريك :

– بوني ؟ أيوجد بوني هنا ؟

– طبعاً .. وهو لك وحدك ، هل آتي به أمام الباب ؟

وهتف سدريك وقد غمرته السعادة :

– آه .. يا رب ؟ بوني لي وحدي .. كم ستكون شيري سعيدة حين أحكي لها .

– وإذاً ؟ هل تريد رؤية هذا البوني ؟

– إني مشتاق فعلاً لرؤيته ، ولكني أفضل أن أؤجل هذا .. لأني تأخرت على شيري .

– تستطيع تأجيل زيارتها إلى الغد .

– مستحيل .. إنها تنتظرني .

– حسناً .. اجذب حبل الجرس !

وركب الاثنان العربة وتوجها إلى الباب الخارجي ، وسدريك يطرح السؤال تلو السؤال . ما لون البوني ؟ وما اسمه ؟ وماذا يأكل ؟ ومتى يستطيع رؤيته غداً ؟ وقال أخيراً :

– ستكون شيري مسرورةً لهذا النبأ .. إني لم أركب بوني في حياتي ، لي صديق في الشارع الخامس لديه بوني يركبه كل صباح ، وكنت أتمتع برؤيته دوماً .

وفكر لحظةً ثم قال بحماسة :

– لا يوجد جد في العالم أروع منك .. هذا أكيد ، إنك تقضي وقتك في صنع الخير ، وإسعاد من حولك . إنك رائع .. وقد علمتني شيري أن أكون محسناً .. وحسبت على أصابعي عدد الذين أحسنت إليهم فوجدتهم سبعةً وعشرين شخصاً ..

– هل هذا عددهم فعلاً ؟

ولم يكن الكونت قد فكر بإدخال السعادة على أحد إلا على نفسه فقط ، وها هو طفل صغير يلفت انتباهه إلى ماصنعه من أعمال الخير .

وسأله الكونت بلهجة المرتاب :

– هل أنت واثق من حساباتك ؟

– تماماً .. لأني عددت الأشخاص الذين استفادوا من خيرك .. والحقيقة أن الناس يخطئون حين تخدعهم المظاهر .. تصور أن السيد هوبس يكره النبلاء ، وسوف أكتب له لأصحح له هذه الفكرة .

– وماذا ستقول له ؟

– سأقول له إن فكرته عن الكونتات واللوردات خاطئة ، وإني سأحاول التشبه بك حين أكبر .

وتأمل الوجه الجميل البريء الذي ينظر إليه وتبدل لونه وهو يقول :

– تتشبه بي ؟

ثم نظر من النافذة وقد علته الكآبة ، وفكر بأن الناس المحيطين به يكرهونه ويخشون ما يضمره لهم ، وأنهم لا يضمرون له الحب أيضاً ، فكيف يتصور هذا الصغير أنه يريد الخير لهم ؟ فهل يخيب ظنه فيه ؟ وهل يصلح لأن يكون قدوةً له ؟

وصلت العربة إلى (لودج) فانتزعت الكونت من أفكاره ، فقال :

– أظننا قد وصلنا .

– نعم .. توكأ علي سأعطيك عصاك .

– كلا ! سأبقى في العربة .

فقال سدريك مندهشاً :

– كيف ؟ ألا تأتي لرؤية شيري ؟

فقال الكونت بجفاء :

– ستفهم شيري وتعذرني ، وقل لها إن البوني نفسه لم يمنعك من المجيء إليها .

فقال سدريك آسفاً :

– سيخيب أمل شيري .. ولا ريب أنها مشوقة لرؤيتك .

– لا أظن ذلك ..

ثم قال للسائق :

– سنمضي الآن .. وتعود لتأتي باللورد فونتروا ..

وتردد سدريك برهة ، ثم جرى في الممر إلى البيت .

الفصل السابع

الكنيسة

يوم الأحد التالي ، كانت الكنيسة غاصة بالمصلين القادمين من كل أنحاء المنطقة ، وقد جاءت العائلات مع الأولاد ، فكانت هنالك زوجة الطبيب الذي يحضّر الأدوية للمنطقة كلها مع بناتها الأربع ، والخياطة وصديقتها الآنسة بيركنــز طبعاً ، وكذلك السيدة ديبل التي لم تغلق حانوتها طوال الأسبوع ، وقد تردد عليها الزبائن يشترون إبرتين أو كبة خيطان أو قطعة شمع ، ولم تربح ثروة طائلة حتماً ، ولكنها لم تكف عن الكلام ، فعرف سكان المنطقة جميعاً كيف تكون غرفة نوم اللورد فونتروا ، وما يأكل في فطوره ، وأي الدمى أو اللعب يفضل من بين تلك التي اشتراها له جده بثمن باهظ ، واطلع الجميع على المأساة التي فرقت بين الولد وأمه ، وأعجبوا بصبرها وشجاعتها ،

وعطفوا على ذلك الطفل الذي يقاسي من صحبة الكونت الذي أرعب الرجال ، فما بالك بولد صغير ؟ .

وأما حكاية هيكنــز فكانت على كل لسان ، إذ رواها القس لخادمته ، ونقلتها هذه للسيدة ديبل فسرت في بيوت القرية كلها سريان النار في خيط من البارود ، ولذلك اجتمع هؤلاء الناس في الكنيسة آملين أن يلقوا نظرة على اللورد الصغير الذي سيغدو مالكاً لهذه الأراضي التي يفلحونها .

وكان الكونت يجهل أن أسراره شائعة في القرية ، ولكنه عزم على حضور قداس هذا الأحد ، ولم تكن من عادته المواظبة على الكنيسة ، ولكنه أراد أن يتعرف الجميع على سدريك دون أن يعرف لذلك سبباً .

لقد تزاحم الوافدون على الطرقات ، ولم يكونوا مستعجلين للدخول إلى الكنيسة ، وهم يتبادلون الأحاديث جماعات . ومن وسط إحدى هذه الجماعات صاحت امرأة :

– أليست هذه أمه آتية ؟ يا لها من امرأة جميلة !

والتفت الجميع بفضول ، وكانت بالفعل السيدة إيرول تسير في الطريق إلى الكنيسة ، ولم يكن قد رآها أحد من قبل ، فكانت إذا مرت بجماعة كفوا عن الكلام والتفتوا يتأملونها . ولاحظت أن الرجال يرفعون قبعاتهم لها وتحييها النساء بحرارة ، فتجيبهن بابتسامة وكلمة طيبة ، فأدركت بعد وقت أن استقبالهم لها وترحابهم بها لأنها أم اللورد الصغير . وما كادت تجتاز عتبة الكنيسة حتى لفت انتباه الناس شيء آخر هو عربة القصر يجرها حصانان قويان ، وأعجبوا ببراعة السائق يدور بها حتى يقفها أمام باب الكنيسة تماماً ، ولم يكن لدى الخادمين الوقت لفتح باب العربة حتى وثب إلى الأرض طفل صغير ذو جدائل شقراء طويلة ، وهمس الشيوخ لمن يحيط بهم :

– إنه صورة طبق الأصل عن أبيه الضابط في صغره .

ولم يكن الصغير يلتفت إلى أحد ، وقد تركز انتباهه على داخل العربة حيث يساعد توماس الكونت على النـــزول . وما أن لامست قدماه الأرض حتى هرع الفتى إليه يقدم إليه كتفه وكأنه عملاق . ودهش الناس لأن سدريك لا تبدو عليه الرهبة من الكونت المرعب .

وقال سدريك وهو يتأمل ابتسامات الناس : تظهر على الناس السعادة لرؤيتك يا جدي .

فقال الكونت : انزع قبعتك يا فونترروا .. ألا ترى أنهم يحيونك ؟



فنـــزع قبعته وهو يحيي كل من حوله ، وتقدمت امرأة عجوز وقالت له : حماك الله يا سيدي وأطال في عمرك !

فأجابها سدريك خجلاً :

– شكراً لك يا سيدتي .

ودخل الكونت وسدريك الكنيسة وجلسا في المقعد المخصص للعائلة النبيلة ، ولمح سدريك شيئين أدخلا السرور على نفسه .

الشيء الأول أمه الجالسة على مقعد في الطرف الثاني من الكنيسة ، والشيء الثاني تمثال رجل وامرأة يصليان ، فجذب كم سترة جده وسأله :

– لمن هذا التمثال ؟

– إنهما اثنان من أسلافنا عاشا هنا منذ عدة قرون .

حينئذ بدأ القس موردنت القداس وهو يشع بالسعادة ، ونهض الجميع لإنشاد مقاطع من الكتاب المقدس ، وكان صوت سدريك العالي يرن في القاعة ، فكان الكونت يختلس إليه النظرات وأشعة الشمس تخترق زجاج الكنيسة لتنعكس على شعره الأشقر وملامحه النبيلة ، وهو غارق في الإنشاد غير آبه بما حواه ، فأخفى الكونت

أنفه في الكتاب ليكتم ابتسامة ظهرت على شفتيه ، وخيل إليه أنه يرى ولده في المكان نفسه وفي مثل سنه .

انتهى القداس وظل المصلون أمام الكنيسة ليشاهدوا الكونت وحفيده يغادرانها . وما إن اجتازا الباب حتى تقدم إليهما رجل مكتهل ممسكاً قبعته بيده ثم انحنى أمام الكونت ، فقال له الكونت وهو يلمس قبعته :

– كيف حالك يا هيكنـــز ؟

وقال سدريك :

– أهذا السيد هيكنـــز ؟

فأجابه الكونت بجفاء :

– لا شك أنه (السيد) هيكنـــز .. وقد جاء ليتعرف إلى مالكه الجديد .

فقال هيكنـــز بتواضع :

– إني طوع أمرك يا سيدي .. وقد أخبرني أبونا القس أن سيدي اللورد هو الذي كتب رسالة إلى المحاسب فأعفاني .. فاسمح لي أن أشكره ..

والتفت إلى سدريك وقال :

– لقد أسديت إلي يا سيدي خدمة لن أنساها .. وإني ..

ثم تلعثم ولم يدر ما يقول .

فقال سدريك :

– آه .. كل ما فعلت أني كتبت رسالة أملاها علي جدي الكونت ، والفضل يعود إليه ، لأن أفضاله عمت الناس جميعاً .

وتمتم هيكنـــز مندهشاً لهذه الحالة الطارئة التي اجتاحت الكونت :

– نعم .. بالطبع .. وأشكرك يا سيدي الكونت .

وسأله سدريك :

– هل السيدة هيكنـــز أحسن الآن ؟

– نعم يا سيدي .. خاصة بعد أن زال عنها همّ الطرد من المنـــزل .. إن الهموم قد تكاثرت علينا يا سيدي .

– إن جدي قلق لمرضها وللحصبة التي أصابت الأولاد .. فأنت تعلم أن سيادة الكونت يعطف على الأولاد ويحبهم .

وزادت هذه العبارات اضطراب هيكنـــز ، فلا أحد في القرية يجهل كيف أساء الكونت معاملة أبنائه وعائلته كلها . وأما الكونت فكان يحدق بعينيه الواسعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، ويضرب الأرض بعصاه ويعض شاربيه ، ثم قال :

– لعلك أدركت يا هيكنـــز كم أخطأ الناس في الحكم علي ؟ ومنذ الآن استمع إلى رأي اللورد فونتروا واعمل به .. فهو أدرى الناس بي .

فانسحب هيكنـــز وهو ينحني في كل اتجاه . وقال الكونت لسدريك وعلى شفتيه ابتسامة غريبة :

– هيا يا فونتروا .. اصعد العربة !

الفصل الثامن

ركوب الحصان



كانت الابتسامة ترتسم كثيراً على شفتي الكونت الكئيب كلما ازدادت معرفته بحفيده القادم من أميركا . والحق أن الكونت كان يعيش منعزلاً في قصره الواسع يحيط به خدمه المذعورون لأقل حركة منه ، يعاني من آلام المفاصل وثقل الستين عاماً ، ولم يكن غبياً ليتوقع من خدمه سوى الخوف والاحترام . وأما أصدقاؤه فلا أصدقاء له ، وإنما هم بعض الناس الذين لا يهابونه ولا مصلحة لهم عنده ، يزورونه من حين إلى حين ويضحكون لملاحظاته اللماحة الشريرة القاسية .

وحينما كان شاباً قادراً على الترحال زار بلداناً كثيرة دون أن يجد متعة في تجواله ، ثم تدهورت صحته ، فاضطره الضعف إلى

ملازمة قصره والبقاء بجانب النار يطالع الصحف ويشكو من إهمال الخدم .

هنالك جاء سدريك ، ولو كان فتى أقل بهاءً وذكاءً لعامله معاملة الحيوان ، ولكنه وجد فيه وريثاً يليق بعائلة دورنكور العريقة ، وقد أسعده أن يرى الناس يحيون حفيده بشيء من عدم الكلفة وبكثير من المحبة والحماسة ، فاطمأن على مستقبل أملاكه وجعل يدرب حفيده على تحمل المسؤولية والتعامل مع الفلاحين . ولم يكن ليهتم لحياة عائلة هيكنـــز أو موتها ، ولكنه أراد أن تشيع سمعة سدريك الطيبة بين أهل القرية ، لعل ذلك يشغله عن التفكير بأمه . ولا علاقة له بالبر والإحسان ، ومهما يكن الأمر فإنه فخور بحفيده كثيراً .

وبدأ سدريك يجتاز – دون أن يدري – امتحاناً عسيراً حينما امتطى ذلك الحصان القزم ، فنسي الكونت آلام مفاصله ، ووقف في الشرفة يتأمله .

ساق السائس البوني ممسكاً بعنانه وهو يحرك عنقه ، وشعره الأسود اللامع منسدل عليها ، وسدريك يتحرق شوقاً لامتطائه .

وبعد أن دار به حول القصر عدة مرات صرَّح السائس (ويلكنس) :

– إن الفتى لا يخاف ركوب الحصان ، ولا أعيد عليه تعليماتي مرتين ، ويظل منتصب القامة لا يتزعزع .. إنها لمتعة أن تراه فوق حصانه .

من الغد سأل جده :

– هل أستطيع الهرولة به ؟

فقال :

– ولِمَ تهرول به ؟

– لأني رأيت الفتى في الشارع الخامس بنيويورك يهرول بحصانه ، بل يجري مسرعاً كالريح .

وسأل السائس الجد بنظراته فوافقه ، فركب السائس حصاناً آخر ليصحبه ، ولاحظ سدريك ذلك اليوم أن السير بهدوء والهرولة أمران مختلفان تماماً ، وسأل ويلكنس وهو يضم شفتيه :

– هل أتقلقل فوق الحصان هكذا .. دائماً ؟

– لا .. ولكن يجب أن تنهض وتجلس لتوافق حركتك مع حركة الحصان وتخفف عنه .

– لقد حاولت .. ولكنه أمر صعب .

وضحك السائس وهو يرى الفتى ينهض ، ثم ما كاد يجلس فوق ظهر الحصان حتى طارت قبعته ، ولكنه عض على لسانه مصمماً على إتقان هذا النهوض والجلوس .

وصاح الكونت من نافذة المكتبة :

– توقف قليلاً .. أين قبعتك يا فونتروا ؟

فقال السائس :

– طارت في الطريق .. ولم يشأ التوقف ليأخذها .

– ولم يخف ؟

فابتسم السائس باعتزاز :

– إنه لا يعرف الخوف يا سيدي .. ويملك تصميماً وعزيمةً لا أعرفهما لدى الصغار من مثل سنه .. هذا شيء يسري في دمه .

فنظر الكونت إلى السائس نظرة توحي بالامتنان ، وقال :

– ترفق به .. ولتكن الأمور بالتدريج .

وقال سدريك وهو يجفف جبينه :

– أعترف بأنه يتزعزع أكثر مما كنت أظن ، وهذا متعب قليلاً ما .. ولكن يجب أن آتي بقبعتي .

فقال الكونت :

– افعل ما تراه مناسباً .. وانتبه إليه يا ويلكنس !

لم يكن سدريك يسعى إلى إرضاء جده بل يتصرف على طبيعته البريئة . وتأمله جده وهو منتصب فوق حصانه والسائس يلاحقه ، فبرم شاربيه تعبيراً عن رضاه واجتاحه إحساس لم يعرفه طوال حياته .

بعد قليل ، اندفع إلى النافذة وقد قطب حاجبيه وسمع وقع الحوافر المتسارعة ، فرأى سدريك يجري فوق حصانه والسائس يلاحقه خائفاً ، وصاح سدريك فرحاً :

– إني أجري .. إني أجري .. ولا أسقط عن الحصان ، فأغلق الكونت النافذة وقد اتسعت ابتسامته .

بعد أيام اعتاد الأطفال في المزرعة أن يقفوا أمام عتبات بيوتهم يستمتعون برؤية اللورد الصغير راكباً حصانه ، فإذا مر بهم رفع

قبعته تحية لهم ، وقد يتوقف ليحادثهم وكأنه يعرفهم منذ زمن طويل .

وروى ويلكنس لأصحابه وهو يضحك كيف أن اللورد الصغير أركب على حصانه أحد الأطفال وكان يعرج وهو عائد من المدرسة وأوصله إلى بيته ، وقال ويلكنس :

– كان يمسك الرسن بيده ويضع يده الأخرى في جيبه وهو يصفّر مسروراً ، وحين وصل إلى بيت الطفل قال لأمه : " صباح الخير يا سيدتي ، لقد جئنا بولدك لأن قدمه متعبة ، ويقول إن العكاز لا يكفيه ، لذلك سأطلب من جدي أن يرسل إليه عكازين لعل حالته تتحسن " ، وتستطيعون تصور ذهول المرأة ، وأما أنا فلم أستطع منع نفسي من الضحك .

وحينما سمع الكونت هذه الحكاية لم يرسل في طلب سدريك يعاتبه على اختلاطه بأبناء العامة ، بل ضحك ضحكاً مرتفعاً وناداه ليسمعها منه .

وبعد أيام توقفت عربة الكونت الفخمة أمام بيت الفتى العاجز ، وهبط منها سدريك حاملاً عكازين لا غنى للعاجز

عنهما ، لأن قدم الفتى توقفت عن النمو لمرض أصابه منذ ولادته ، وقال لأمه :

– إن جدي يبلغك تحياته ويرجوك أن تقبلي هذين العكازين لولدك .

وقال لجده وهو يصعد إلى العربة :

– لقد بلغت تحياتك إلى السيدة ، وقد نسيتَ أن تذكرها .. هكذا الواجب .

فقال الجد وهو يبتسم في سره :

– لا بأس .. إذا كان هذا واجباً .

لقد توثقت الروابط بين الجد وحفيده يوماً بعد يوم ، وكان سدريك يظن جده أكرم الناس وأحسنهم خلقاً ، ولم يظهر من الجد تصرف يكذب ظنه هذا . وكان من الممكن أن تفسد سدريك هذه الاستجابة لطلباته كلها ، ولكن أمه تحرص على رده إلى الاعتدال أثناء الساعات الطويلة التي يقضيها معها .

أما القضية التي كانت تشغل بال سدريك وغفلت عنها أمه ولم يهتم بها جده ، فهي كيف أن شخصين على هذا القدر من

الكمال ، ومن سمو النفس : أي جده وأمه لا يلتقيان أبداً ؟ فإذا أوصله جده إلى مسكن أمه لا يهبط من العربة لتحيتها ولا تخرج هي للقائه .

وعلى الرغم من ذلك فإن جده قد أمر بأن تحمل الزهور والفواكه الناتجة من المزرعة إلى مسكن الأم في لودج كل يوم .

بعد عدة أيام قام الجد بصنيع رفعه في نظر حفيده إلى درجة عالية من التقدير والإكبار ، وكان مستعداً لزيارة أمه فلم يجد أمام الباب عربة الكونت الضخمة ، بل عربة أنيقة يجرها حصان واحد . وقال له جده :

– هذه هدية إلى أمك يا فونتروا ، فلا يمكنها أن تمشي على قدميها في الطرقات كالفلاحات ، وعليك أن تقدمها بنفسك ، وأما الخادم الذي يقودها فسوف يبقى لديها ليعتني بالعربة والحصان .

كانت أمه تقطف بعض الأزهار من حديقتها حين اندفع إليها سدريك لاهثاً وتعلق بعنقها وهو يشرح لها الأمر . وقد انزعجت السيدة إيرول إذ وجدت أنها مضطرة لقبول هدية من رجل يتجاهل وجودها ويعاملها معاملة الأعداء ، ولكنها أبت أن تخيب ظن ابنها

فيها وتفسد عليه فرحته ، وهي عاجزة عن تفسير سبب رفض هذه الهدية .

ومن الغد كتب سدريك رسالة مطولة إلى السيد هوبس يبين له فيها أن جده من أطيب الناس ، وأنه لا يحمل على رأسه تاجاً ولا يرمي في السجن أحداً . وختمها برغبته في رؤية السيد هوبس ، وأسفه لأن أمه شيري لا تقيم في القصر معه .

ولكي يتأكد سدريك من صحة إملائه قرأ الرسالة على جده .

فقال الكونت بعد أن قرأ الرسالة :

– هل تشتاق إلى أمك كثيراً ؟

فقال سدريك :

– نعم .. إني مشتاق إليها على الدوام .. وأنت ألست مشتاقاً إليها ؟

ثم وضع يده على ركبة جده وحدق فيه بعينيه الصافيتين ، فقال الجد بصوت أجش وهو يلتفت برأسه :

– إني لا أعرفها .

فقال سدريك :

– ما يدهشني أن أمي أوصتني بأن لا أطرح عليك سؤالاً متعلقاً بها . وإذا أقبلتُ على النوم نظرتُ إلى نافذتها البعيدة فرأيت مصباحاً مضاءً .

وسأله الجد :

– وما معنى هذا المصباح ؟

– معناه : رعاك الله يا ولدي .. هكذا قالت لي ، فهل أخشى بعد ذلك شيئاً .

وتأمل الجد حفيده زمناً طويلاً وهو يتساءل عما يدور في رأسه الجميل .

الفصل التاسع

البيوت المتداعية

كان الكونت الهرم يقضي الساعات مفكراً في أمر حفيده الذي أرضى غروره بعد أن خاب أمله في أبنائه الثلاثة ، وأسعده أن يرفع رأسه بين الناس بهذا الحفيد الذي يحمل اسم العائلة النبيلة ويرث أمجادها .

فيجلس في المكتبة وحيداً يحلم بالمستقبل الزاهر الذي يتوقعه لهذا اللورد الصغير ، ولكن ما يزعجه هذه الثقة الكاملة التي يوليها سدريك له ، ويخشى أن يعرفه على حقيقته ، وتصل إليه أخباره حينما كان يُدعى لسنوات طويلة الكونت (اللئيم) أو (الرهيب) .

كانت هذه الأفكار تطارده ليل نهار حتى تنسيه آلام مفاصله ، وأدهشه أن قدمه قد تحسنت وأصبح يمشي عليها دون انتباه إليها .

وذات صباح دهش سكان القرية لرؤية لورد فونتروا الصغير يجري به حصانه ولا يصحبه السائس ويلكنس ، بل فارس نحيف طويل القامة يتطاير شعره الأشيب في الهواء ، ممتطياً حصاناً أشهب ضخماً ، إنه الكونت دورنكور نفسه .

والحق أنها كانت فكرة سدريك ، إذ قال لجده بصوت آسف وهو يتهيأ للركوب :

– يؤسفني أن أتركك وحدك .. ألا تستطيع مرافقتي ولو مرة واحدة ؟

وانقلب الإصطبل رأساً على عقب لمدخل الكونت وهو يطلب من السائس أن يسرج له حصانه ، فركبه كما كان يفعل وهو شاب غير آبه لقدمه التي تؤلمه . واعتاد الناس أن يروا في السهول الحصان الأشهب يركبه الكونت مرفوع الهامة كالصقر ، والبوني القزم يجري بفارسه الأشقر الجميل .

لقد وطدت هذه النـــزهات عرى المحبة بين الفارسين ، وتعلم الكونت الشيء الكثير عن أميركا وعن شيري ، وهو يدفع حفيده إلى الكلام ويقاطعه ليقول له :

– اخفض ساقك أكثر يا فونتروا .. ولا تجذب اللجام بشدة لكلا تؤذي حصانك .

ويتبع الفتى نصائحه وهو يعض على لسانه لشدة اهتمامه ، وقد يصيح به الجد حيناً :

– إلى الجري .. الآن !

فيجري سيدريك كالريح وهو يضع يده على قبعته يمنعها من السقوط ، ثم يعود إليه والجو يصفق فرحاً .

وقد علم الكونت أن شيري كانت تزور فقراء القرية ، وكثيراً ما شوهدت عربتها أمام بيوتهم ، وقال له سدريك :

– إن فتيات من القرية يأتين إلى مسكن شيري في لودج يتعلمن الخياطة ، وهي تشعر بأنها غنية ولا بد أن تفيض بخيرها على الفقراء ، لذلك تحب أهل القرية .

وقد سر الكونت كثيراً ، وسره كثيراً أن يرى شيري في الكنيسة خاشعة تصلي ، وأن المرحوم ولده قد عرف كيف يختار امرأة صالحة حسناء ، ولم يزعجه أن يعلم أن شيري قد عطفت إليها قلوب الفلاحين وذاعت شهرتها بينهم ، ولكنه لم يستطع أن يمنع

عن نفسه إحساسه بالغيرة من المكانة التي شغلتها الأم في قلب ابنها ، هذا القلب الذي أراده خالصاً له .



ذلك اليوم ، وَقَف الجد حصانه فوق مرتفع من الأرض ، ورمى ببصره إلى السهول المترامية أمامه وهو يعض شاربيه ، ثم قال :

– أتعلم أن هذه السهول كلها ستكون لك ذات يوم يا فونتروا ؟

ففتح سدريك عينيه دهشة وقال :

– هذه لي ؟

فرفع الكونت ذراعه ولوح بها مشيراً إلى ما حوله من الآفاق وقال :

– كل ما تبصره عيناك هو لي .. وأشياء كثيرة سواه ستكون لك بعد وفاتي .

فقال سدريك واجماً :

– لا أريدها .. وأرجو لك طول البقاء .

– ستكون لك .. فكيف تتصرف بها ؟

فقال سدريك :

– لقد ذكرت لي شيري أنه ليس سهلاً على المرء أن يكون غنياً ، لأن للآخرين عليه حقوقاً ينبغي له الوفاء بها ، ولا يستطيع الغني أن يخفف آلام المحرومين إلا إذا عرفهم ، ويصعب علي أن أتعرف إلى سكان القرية جميعاً .. فهل عرفتهم يا جدي ؟

– الحق أن المحاسب يعرفهم .. لنعد الآن .. حين تكون كونتاً ستتصرف خيراً مني .. هذا أكيد .

وفي طريق العودة كانت الأفكار تتزاحم في رأس الشيخ وهو يرى مبلغ حبه لهذا الفتى ، وإيثاره له ، وضحك ضحكة عجب إذ أدرك حاجته إلى حضوره وصوته ، ورغبته في اكتساب وده واحترامه . وقال لنفسه :

– إني رجعت إلى طفولتي .. وسيطرت علي عاطفتي بعد أن تقدم بي العمر ..

ولكنه أحس في أعماقه بأنه يتعلم من هذا الطفل أشياء كثيرة ، ولعل أفخمها أنه لا يريد الشر بأحد ولا يخطر له ببال .

بعد أسبوع من هذه الجولة عاد سدريك من زيارة أمه في لودج مهموماً ، فجلس في الكنبة الكبيرة أمام جده يتأمل النار

صامتاً وقد عقد حاجبيه ، فاختلس الكونت إليه النظر قلقاً لهذه الحالة الطارئة عليه .

وقال سدريك بعد تفكير :

– هل أنت متأكد أن المحاسب يعرف سكان القرية كلهم ؟

فقال الكونت :

– هذه مهنته .. فهل أهمل شيئاً من واجباته ؟ ألاحظت شيئاً عليه ؟

والعجيب أن الكونت بدأ يستمتع بانصراف حفيده إلى شؤون القرية ، ويريده في آن واحد أن يكون طفلاً لاهياً يعبث عبث الأطفال ، وأن يكون رجلاً ناضجاً تشغله شؤون الرجال .

فقال سدريك :

– لا .. لم ألاحظ عليه شيئاً من الإهمال ، ولكن شيري في زيارتها لبعض أكواخ الفلاحين ، رأت أن أرضها من التراب ، فإذا سقطت الأمطار من أسقفها الواكفة غدت وحولاً وأصيب الأطفال بالسعال والحمى ، والبؤس يفسد مزاج الناس ويدفعهم إلى فعل

الشر ، وقلت لشيري : إنك لو علِمت بحالهم لما ارتضيتها لهم كما فعلت يوم جاءك هيكنـــز .

فنظر الكونت إلى اليد الصغيرة الراقدة على ركبته ، ورفع بصره إلى العينين الحائرتين اللتين ترجوانه .

والحقيقة أن الكونت يعرف هذه البيوت المتداعية الواقعة في ناحية (إيرلزكورت) ، وقد كلمه بشأنها المحاسب ، كما زاره القس يرجوه أن يفعل شيئاً لأهلها ، ولكن الكونت طرده يوم اشتد به داء مفاصله ، فدعاه ذلك إلى ألا يثقل عليه بذكر هؤلاء البائسين .

ولكنه حين رأى هذا الوجه البريء يستعطفه قال بحسرة :

– وهل تريدني أن أتكفل بهذه البيوت المتهدمة ؟

– نعم .. ينبغي أن تهدم ويعاد بناؤها .

فنهض الكونت قائلاً :

– هيا .. لنقم بجولة في الحديقة وسوف نناقش هذا الموضوع بعد العشاء .

الفصل العاشر

أخبار سيئة

إن ما اكتشفته السيدة إيرول في أكواخ الفلاحين شيء مريع ، فالبيوت المتهدمة تدخلها الحيوانات وتختلط بالأطفال الذين تغطيهم البثور والأوحال ، وقارنت ما شاهدته بالحياة التي يعيشها ولدها سدريك في القصر ، فأحست أن هؤلاء الأطفال يستأهلون شيئاً من العناية ، وكانت تعرف تأثير ولدها في جده ، فروت له ما رأته لعله يفعل شيئاً .

والواقع أن الكونت كان متعلقاً بحفيده بحيث يؤلمه أن يخيِّب له رجاء ، خاصة وأنه يظنه من أصحاب البر والإحسان ، وكانت عاطفة جديدة يحسها الكونت ، عاطفة الإحسان بعد هذه السنوات الطويلة من الشرور ، وكيف يجرؤ أن يقول للطفل الذي يثق به ثقة

كاملة : (قد تكون حياة هؤلاء الفلاحين بائسة ولكنها لا تعنيني ، المهم أن يدفعوا أجورهم) .

فاستدعى إليه المحاسب الذي فتح عينيه دهشة حين حدثه عن الإصلاحات العاجلة التي ينبغي أن تجرى على بيوت الفلاحين ، وقال له بنبرة حازمة :

– إنه قرار اتخذه فونتروا ، وهو حريص على سلامة المزرعة ، ولا تنس أن تخبر الفلاحين بذلك .

ونظر إلى سدريك الذي كان يلهو مع دوغال وقد أصبحا صديقين لا يفترقان ، وتراه يمشي بجانبه أو يهرول وراء حصانه .

وهز سكان (إيرلزكورت) أكتافهم لهذا النبأ ، فهم يعرفون الكونت حق المعرفة ، ولكنهم دهشوا إذ رأوا العربات تنقل الحجارة والحصا ولوازم البناء ، وتأكد لهم أن أكواخهم ستهدم ليعاد بناؤها ، وشكروا للفتى ما أسداه إليهم من صنيع .

لم يكن سدريك على علم بما ذاع عنه من أنباء الخير ، فكان يعيش حياته اليومية يجري في الحديقة يطارد الأرانب ، أو يقرأ الكتب المجلدة مستلقياً أمام المدفأة مستمتعاً بحكاياتها العجيبة ، أو

يكتب الرسائل الطوال إلى السيد هوبس وديك ، كما يقوم بنــزهات بعيدة على ظهر حصانه يرافقه جده .

وحينما بدأ العمال يضعون القواعد لبيوت الفلاحين في إيرلزكورت ، توجهت نزهات سدريك على حصانه إلى تلك الناحية ، ثم أصبحت عادة له ، فكان يختلط بالبنائين ويطرح عليهم أسئلته الكثيرة .

بعد مدة من الزمن أصبح خبيراً بتفاصيل العمل ، فكان يلقي على جده دروساً في صنع القرميد أو استخدام الحجارة .

وقال لجده :

– أتمنى أن أعرف أشياء كثيرة .. فالمرء لا يدري ما يفعل في المستقبل .

وكان العمال والبناؤون يجيبون عن أسئلته بمرح وارتياح ، فإذا عادوا إلى بيوتهم حدثوا زوجاتهم وأولادهم عن لورد فونترويا ، ويعجبون أن يكون حفيد ذلك الكونت القاسي ، ولكنهم لا يرتابون في صدق عاطفته نحو حفيده وما أحدثه من انقلاب في حياته وتغيير في أخلاقه ، ويتطلعون إلى ذلك المستقبل البعيد الذي

يكون فيه سدريك مالكاً لمزارع جده وما ينتظرهم على يديه من خيرات .

وكان الكونت يتأمله وهو يقرأ الكتب ويقول لنفسه :

– إن هذا الصغير يتقن كل عمل يباشره .

وفجأة التفت إليه سدريك قائلاً :

– أتذكر أول جوابي لك حين التقينا أول مرة ؟

– ماذا كان ؟

– قلت لك إننا سنتفاهم حتماً ، فهل تجد الآن جداً وحفيداً يتفاهمان مثلنا ؟

فقال الكونت :

– هذا صحيح .. فنحن من أعز الأصدقاء . ولكن قل لي .. أما زلت تتمنى شيئاً ؟

فخفض سدريك رأسه وقال :

– نعم .

– وما هو ؟

– شيري .

فقال الكونت بعد تفكير :

– ولكنك تراها كل يوم .

– نعم .. وكنت أراها من قبل كل حين ، أقبّلها قبل النوم ، وأجدها أمامي في الصباح ، وأحادثها حين أشاء .

فسكت الكونت ثم قال :

– ألن تنسى أمك أبداً ؟ إنك تفكر فيها طوال الوقت .

– نعم .. لا أنساها أبداً .. كما لا أنساك وأفكر فيك طوال الوقت يا جدي .

ولاحظ الكونت أنه يغار من أمه ، فأضاف هذه العاطفة إلى العاطفة القديمة ، عاطفة الحقد عليها حينما تزوجت ولده المرحوم .

ذات يوم ، حينما أشرفت البيوت في إيرلزكورت على الانتهاء ، أعلن الكونت عن حفلة عشاء في القصر ، وكانت الدهشة عامة لأن مثل هذه الحفلة لم تجر في القصر منذ زمان طويل .

قبل أيام جاءت الأخت الوحيدة للكونت (الليدي لوريدل) لزيارة أخيها يصحبها زوجها السيد (هنري لوريدل) ، وتناقلت

القرية نبأ هذه الزيارة ، وتقاطر الناس على حانوت السيدة ديبل لمعرفة التفاصيل ، وكانت الليدي لوريدل لم ترجع إلى دورنكور منذ زواجها ، أي منذ خمس وثلاثين سنة ، وهي سيدة لطيفة ذات شعر أبيض يتهدل جدائل حول وجهها ، ولم تكن لتوافق أخاها على تصرفاته الخشنة ، فاختلفت معه وساءت علاقاتهما .

وكانت تصلها أخبار السوء عن أخيها ، وكيف أنه يقسو في معاملة زوجته التي توفيت بعد أن خلّفت له ثلاثة أبناء ، وسمعت عن وفاة ولديه دون أن تراهما ، وذات يوم تقدم إلى زيارتها شاب هو الضابط إيرول ابن أخيها الذي أراد أن يتعرف إلى عمته ، وقد سرت برؤيته ، وأُعجبت به ، ولبث لديها ثمانية أيام وفارقها على أمل العودة إليها .

ولكن الشاب سافر إلى أميركا ولم تره أبداً . وأما الكونت فلم تعجبه هذه الزيارة حين علم بأمرها ، وحرم على ولده زيارة عمته مرة ثانية ، وخشيت العمة أن يفسد ابن أخيها مستقبله بالزواج من الأميركية ، وسخطت على طريقة معاملة والده له ، حتى إنه طرده ومنع الاتصال به ، فلم تعرف عنوانه . ووصلها ذات يوم نبأ

وفاته ، وعلمت بوفاة أخويه أيضاً وكيف استدعى أخوها الكونت بعدئذٍ الفتى الصغير ليجعل منه لورد فونتروا .

قالت السيد العجوز لزوجها :

– إنه سيفسد حياة هذا الطفل كما فعل بأولاده ، إلا إذا سهرت أمه على سلامته .

وعلمت بعدئذٍ أن الطفل يعيش منفصلاً عن أمه ، فانتابها الغضب وقالت لزوجها هنري :

– أليس من العار أن ينتزع الولد من أمه ؟ والولد بين أمرين : إما أن يسيء معاملته حتى يكرهه ويحقد عليه ، أو يزيد في تدليله حتى يغدو أنانياً ، سأكتب إليه لأبلغه رأيي فيه .

فقال هنري :

– هدئي نفسك يا كونستانس ، لا فائدة من ذلك .

– أعلم .. ولكن هذا عار لا يجوز السكوت عليه .

وتواردت الأنباء عن سدريك ، فقد شاعت أعماله في الأكواخ والمزارع ، حتى وصلت إلى القصور ، ولم يصدق

السامعون ما تتناقله الألسن ، وتساءلوا عن حقيقة الأثر الذي تركه الفتى في هذا الشيخ الرهيب ، وهل تغيرت أخلاقه فعلاً كما يقال ؟

وحدث أن صادف السير (توماس آش) الكونت وحفيده في نزهتهما بين الحقول ، ومزرعته ليست بعيدة عن دورنكور ، فتوقف يسأل الكونت عن صحته ويهنئه على شفاء قدمه . وروى السير توماس تفاصيل هذا اللقاء فقال :

– صدقوني .. كان الكونت وهو يقدم لي حفيده فخوراً كأنه الملك ، ولم أره مشرق الوجه منذ زمن طويل .. والحق أن الطفل كالفارس فوق حصانه ، وكأنه أحد أفراد الحرس الملكي .

وتناهت إلى سمع العمة أنباء معاملته لهيكنــز ، ثم إعادة بنائه لأكواخ الفلاحين ، فتحرقت شوقاً لرؤية هذه المعجزة الصغيرة .

ولا تسل عن ذهولها حين وصلتها دعوة أخيها لقضاء بعض الوقت مع زوجها في مزرعة دورنكور ، وقال السير هنري :

– لا ريب أن هذا الطفل قد أتى بالمعجزات !

وردت على دعوته بقبولها فوراً . وحين وصلت صعدت إلى غرفتها في الحال وتهيأت للعشاء ، ولم تر أخاها إلا حين هبطت إلى

القاعة ، فوجدته واقفاً أمام المدفأة بقامته الفارعة وشعره الأبيض المهيب ، ويقف بجانبه فتى صغير أشقر الشعر يرتدي بذلة من المخمل الأسود بياقة من الدانتيلا البيضاء ، فلم تتمالك نفسها وأطلقت صرخة عجب مكتومة لم تخفَ على الكونت .

وصافحت الليدي لوريدل أخاها بمودة ظاهرة ، ونادته باسمه لا بلقبه ، وهذا أمر لم تفعله منذ زواجها ، وقالت له :

– آه .. هذا حفيدك الشهير يا مولينو ؟

فقال الكونت :

– نعم .. إنه هو يا كونستانس ! فونتروا .. هذه عمتك الليدي لوريدل .

فقال سدريك :

– صباح الخير يا عمتي .. كيف حالك ؟

فتأملته العمة برهة ثم جذبته إليها وقبلته على خديه .

وقالت :

– ناديني العمة كونستانس .. لقد أحببت أباك كثيراً ويسعدني أن أراك شبيهاً به .

– يسرني أن يقال لي إني شبيه بأبي ، فالناس جميعاً يحبونه كما يحبون شيري ..

فالتفتت الليدي إلى أخيها ضاحكة وقالت :

– لقد نلت غاية مناك !

فقال الكونت :

– نعم .. هذا حق .. وهو يظنني أكبر نصير للإنسانية ، ولا أجرؤ على خداعه ، لذلك أصبحت مخلوقاً عجيباً بسببه .

وقاطعته أخته بصراحتها المعهودة فقالت :

– وما رأي والدته ؟

فقطب الكونت حاجبيه وقال :

– لم أسألها رأيها بعد .

– حقاً ؟ ولكنك لن تلبث أن تسمعه ، واعلم يا مولينو أني سأزور هذه السيدة من الغد ، وإذا شئت الدخول في معركة معي فأنا مستعدة لك .. لأن الطفل مدين لأمه بتربيته وحسن خلقه ، وقد شاع عن الأم كل خير ، وأُعجب بها الناس من أكبر الأغنياء إلى أفقر الفقراء .

فقال الكونت وهو يشير برأسه إلى سدريك :

– أنت مخطئة .. الناس معجبون به لا بها ، صحيح أنه مدين لأمه بشيء من جماله .. هذا كل ما في الأمر ، وإذا شئت أن تزوريها فهذا شأنك ولن أرافقك في هذه الزيارة .

قالت الليدي لوريدل لزوجها بعدئذٍ :

– لقد بدل الطفل كثيراً من أخلاق أخي ، وهو لا يكره زوجة ولده كما كان يفعل من قبل ، ولكن الطفل لا يدري مع من يتعامل ، إنه شبيه بمن يداعب نمراً جائعاً .

ومن الغد قامت بزيارة السيدة إيرول ، وعادت مبتهجة بها ، وقالت مخاطبة أخاها بلهجةٍ حاسمة :

– لقد ارتكبت بحق هذه المرأة خطأً فادحاً ، فهي امرأة رائعة نشّأت الطفل على شاكِلَتها من الطيبة وحسن الخلق ، ومن العار أن تفرق بين مثل هذا الأم ومثل هذا الولد ، وسوف أدعوها لزيارتي في مزرعتي .

فتمتم الكونت :

– أنت حرة .. افعلي ما شئت .. ولكنك لا تستطيعين فصل الأم عن ولدها .

– لذلك سأدعوهما معاً .

لم يجبها الكونت ولكنها أدركت مدى تعلقه بحفيده ، وأنه قد جعله محط آماله كلها ، ولم تدهش إذ عرفت أن مناسبة هذه الحفلة رغبته في تقديم حفيده إلى أهله ومعارفه بحيث ينسون إساءته إلى أبنائه ، فلبّوا دعوته يدفعهم الفضول إلى رؤية هذه الظاهرة الغريبة التي اسمها اللورد فونترووا .

أثناء حفلة العشاء لفت انتباه سدريك فتاة نحيلة القوام سمراء جميلة الملامح ، ورأى الشبان يخطبون ودها ، فظنها أميرة من الأميرات ، فلم يحول بصره عنها ، فابتسمت له قائلة :

– لماذا تنظر إلي هكذا يا لورد فونترووا ؟

– لأني أجدك شديدة الجمال .

وضحك الشبان المحيطون بهما ، وعلت حمرة الخجل خديها ، وقال له أحدهم ممازحاً :



- انتهز هذه الفرصة وأنت صغير السن لأنك لن تجرؤ على مخاطبتها حين تكبر .

فقال سدريك :

- ولِمَ ؟ ألا تجدها جميلة ؟

- بلى .. ولكننا لا نجرؤ على التصريح بما في نفوسنا .

فمشت به إلى كنبة قريبة وأجلسته بجانبها قائلة :

- إن اللورد فونتروا يستطيع أن يقول ما يشاء لأنه يصرح بما في دخيلة نفسه البريئة .

فقال سدريك :

- هذا صحيح .. لأني لا أعرف امرأة بمثل جمالك .. سوى شيري .

وتجمع الشبان حولهما ، ولم يدر سدريك كيف ساقه الحديث إلى أميركا والسيد هوبس وديك .. ثم جذب منديله الأحمر وقال :

- سيفرح ديك حين يعلم أني احتفظت بمنديله للمناسبات الهامة .

على الرغم من أن هذه الحفلة قد أقيمت من أجل سدريك وتوجهت إليه الأنظار كلها ، إلا أنه لم يفقد اتزانه ، وجلس بجانب جده كما اعتاد أن يفعل ، وكان المدعوون الذين يتبادلون الأحاديث مع الكونت يتبسمون لرؤية هذا الرأس الأشقر الصغير مستنداً إلى كتفه بحنان ، فيبتسم الكونت أيضاً والسعادة تعصف به .

وكانت سهرة ممتعة لأن الكونت لم يكف عن الابتسام وتبادل الأحاديث ، ولاحظ الناس أن تطوراً عظيماً قد أصاب هذا الشيخ (الرهيب) .

أما الرجل الذي غاب عن هذه السهرة فهو السيد هافيشام ، وقد وصل في ساعة متأخرة ، وهذا ليس من عادته بعد أن بدأ المدعوون في تناول العشاء ، فاعتذر للكونت وهو محرج شاحب الوجه ، وقال :

– لقد تأخرت لقضية هامة جداً ، سأحكي لك عنها فيما بعد .

وجلس هافيشام متوفز الأعصاب غائر العينين لا يكاد ينتبه إلى ما يدور حوله . وحينما أمر الكونت باستدعاء لورد فونتروا ، نظر إليه هافيشام نظرات حادة وهو الذي كان أعز أصدقائه مما أدهش الطفل وجعله يقطب حاجبيه .

وكان هافيشام يتأمل ما حوله من أضواء وزينات وزهور ويزداد عبوساً وتجهماً ، وكأن النبأ الذي يحمله يثقل ضميره ولا يعرف كيف يفضي به إلى الكونت الهرم .

وانتهت الحفلة وبدأ المدعوون يستأذنون بالانصراف ، وأما سدريك فكان جالساً مع الفتاة السمراء التي تعرّف عليها وتدعى (فيفيان هربرت) ينقلان بصريهما في كتاب مصور ، وقال :

– لم أكن أدري أني أستطيع الاستمتاع بمثل هذه الحفلات .. سأطلب من جدي أن يقيمها دوماً !

وقد تعب طول النهار من الحديث ومقابلة الناس ، حتى إن عينيه أغمضتا فجأة ، فحمله الخادم إلى غرفته ، وما إن غادر آخر المدعوين القاعة حتى تقدم الكونت إلى هافيشام ، وقال له :

– ما هذه الكآبة البادية عليك .. ألديك ما تقوله ؟

فقال هافيشام بصوت حزين :

– لديَّ نبأ مزعج ، ويؤسفني أن أنقله إليك ، ولكن لا بد من ذلك .

– وهل له علاقة بلورد فونتروا ؟

– نعم يا سيدي .. إن له علاقة بلورد فونتروا .. وإذا تأكد هذا النبأ الذي أنقله فلن يعود بالخير عليه .

فاستند الكونت إلى مقعده وقد ازرق وجهه من الجزع وقال بصوت أجش :

– لا أظنك تمزح .. فإني أعرفك منذ زمن طويل ، قل ما عندك !

فقال هافيشام :

– لا يا سيدي ، إن الأمر عَيْن الجد .. وباختصار أقول لك إني استقبلت اليوم امرأة في مكتبي تزعم أنها زوجة ولدك المرحوم (بوفيس) وأنه تزوجها في لندن منذ ست سنوات ، وقد أبرزت وثيقة زواج ، ولكن بعد سنة من زواجهما اشتد الخلاف بينهما حتى إن ولدك قد قدَّم لها مبلغاً هاماً من المال بزعمها لكي تنصرف

عنه ، وهذا ما فعلته ، ولكن لديها الآن منه طفلاً عمره خمس سنوات ، والمرأة الأميركية من العامة لم تدرك معنى زواجها من ولدك ، ولكنها استشارت أحد المحامين الأميركان ، فاكتشفت أن ولدها هو لورد فونتروا الحقيقي ، الوارث للقب دورنكور وأملاكه ، وهي تطالب بحقوق ولدها في الميراث ، هذه هي القضية ، وإني شديد الأسف لما يحدث يا سيدي !

ساد الصمت الثقيل في القاعة وتبدلت ملامح الكونت الشيخ ، وغامت نظراته ، ثم التفت إلى هافيشام وقال له :

– لا أستطيع أن أنكر أن ولدي (بوفيس) كان وضيع النفس ، وأنت تعرف ذلك ، وما قام به ليس مستغرباً منه ، وهو عار على العائلة كلها ، ولا عذر له فيما ارتكبه ، قد يكون الذنب ذنبي لأني أسأت تربيته ، ولكني أقول لك وأنت الرجل المخلص لعائلتي : إني فرحت بموته ، قد تستنكر هذا القول ولكنه الحقيقة .

وهذه المرأة التي تزوجها من العامة كيف ثقافتها ؟

فقال هافيشام وهو محرج :

– إنها لا تكاد تعرف كتابة اسمها يا سيدي ، وكل ما يهمها هو المال ، ويؤسفني أن أقول إن هذه الحكاية حقيقية .

فنهض الكونت وجعل يتمشى في القاعة جيئةً وذهاباً ، وكان يتكلم بصوت خافت وكأنه يفضي بأسراره إلى ذاته ، فقال :

– أنت الآن من أعز الناس لدي وهذا أمر لا تجهله ، ولا أرتاب في إخلاصك لعائلتي ، لذلك أقول لك بصراحة إني علقت آمالي الكبار على هذا الفتى ، ووجدت فيه الوريث الجدير بحمل لقب العائلة النبيلة التي يرجع تاريخها إلى (غليوم الفاتح) ، وكنت أكره طول عمري الأطفال ، ولكن هذا الولد مختلف عنهم جميعاً ، لقد وضع ثقته بي واعتبرني مثله الأعلى ، ولا ينبغي لي أن أخيب رجاءه .. هل تفهمني يا هافيشام ؟ يجب أن تفعل شيئاً ، لا أريد لأحد سواه أن يحمل لقب اللورد فونتروا .

الفصل الحادي عشر

ماذا يحدث في أميركا ؟



حينما غادر سدريك أميركا أدرك السيد هوبس أن المحيط الأطلسي يفرق بينه وبين صديقه الصغير ، وأن انكلترا ونظامها الملكي يقفان حائلاً بينهما ، فأحس بالوحدة . ولم يكن السيد هوبس حاد الذكاء ولا يعرف شيئاً سوى البقالة ، ولا يتعامل إلا مع زبائنه ، ولا يقرأ سوى بعض الصحف يستقي منها معلوماته . وحين غادره سدريك لم يجد أحداً يحكي له عن الثورة الأميركية وإعلان الاستقلال واستعادة مدينة (يوركتاون) ، وترك سفره فراغاً هائلاً لدى البقال النيويوركي .

في البداية لم يشعر السيد هوبس بهذا الفراغ ، وظن أن سدريك وأمه سيعودان خلال أسابيع ، وأنه سرعان ما يستقبل

الصغير في حانوته فيجلس على علبة البسكويت وهو يقول : " صباح الخير يا سيد هوبس ، الجو حار اليوم " .

ولكن مرت الأيام ولم يعد الصغير وأمه ، فأحس بالوحدة والكآبة ، وتعكر مزاجه ، فأصبح يعرف في الحارة باسم البقال المشاكس .

وحين يخلو الحانوت من الزبائن يجلس في كرسيه الكبير ويتأمل الأثر الذي تركته قدما سدريك على المقعد ثم يتحسر ، ويفتح الساعة الذهبية التي أهداها له ويقرأ ما نُقش عليها :

(ذكرى من لورد فونتروا إلى صديقه السيد هوبس)

في المساء ، يغلق حانوته حزيناً ويمشي في الطريق المؤدي إلى بيت سدريك ، ويقرأ عبارة (للإيجار) المكتوبة على مدخله ، فينفض رماد غليونه بعصبية ثم يسير إلى داره .

بعد مدة طويلة من التفكير الذي لم يتعوده خطرت له فكرة فعزم على تنفيذها ، فذهب لرؤية ديك ماسح الأحذية ليحدثه عن سدريك .

وذات يوم ، كان ديك مشغولاً بمسح حذاء أحد الزبائن ، فوقف بجانبه رجل بدين قصير القامة وجعل يتأمله .

فقال ديك بعد أن انتهى من مسح حذاء زبونه :

– هل ألمع لك حذاءك يا سيدي ؟

فاستقر السيد هوبس على الكرسي وبدأ ديك يلمع حذاءه بإتقان ، ونظر الرجل إلى شعار ماسح الأحذية : (البرفسور ديك تبتون ماسح أحذية الملوك وملك ماسحي الأحذية) وقال :

– هذا شعار جميل .

فقال ديك :

– نعم .. إنه لشعار جميل .

– كيف حصلت عليه ؟

فقال ديك باعتزاز :

– أهداه إلي أحد أصدقائي .. فتى لا مثيل له ، أصبح الآن كونتاً في إنكلترا .. أتصدق ذلك ؟

فقال هوبس بعد تردد :

– لعلك تقصد لورد فونتروا !

– كيف ؟ وهل تعرفه ؟

فأجابه هوبس وهو يجذب الساعة من جيبه :

– طبعاً .. أعرفه منذ ولادته ، لقد أهداني قبل سفره هذه الساعة .. وانظر ما كتب عليها !

فقرأ ديك عبارة الإهداء وهو معجب بالساعة ، فقال :

– لا أستغرب هذه منه .. فهو فتى كريم .. وهبني الشعار والفراشي وكل شيء ، ويؤسفني ألا أراه ، فقد كنا أعز صديقين .. وبفضله تحسنت أحوالي .

فتحسر هوبس وقال :

– يحزنني أن يصبح كونتاً .. فقد كان أمامه مستقبل باهر في البقالة .

فقال ديك :

– هذا أمر أكيد .

ومازالا يتبادلان الأحاديث حتى دعا هوبس ماسح الأحذية إلى زيارته في حانوته ، وكان شرفاً عظيماً له أن يزور تاجراً يملك حانوتاً وعربة يجرها حصان ، وسأله هوبس قبل أن يودعه :

– هل لديك معلومات حول النبلاء الإنكليز الذين يسكنون القصور ؟

– نعم .. احتفظت بأعداد الجريدة التي تنشر رواية مسلسلة عن كونتات إنكليز بعنوان (التاج الدموي) وهي رواية رائعة تتحدث عن السجون والحصون والمؤامرات .

– حسناً .. حين تأتي لزيارتي يوم الأحد اجلب معك كل ما عندك من قصص النبلاء الإنكليز من لوردات وكونتات الذين يضعون التيجان على رؤوسهم ليعرفهم الناس .

وكانت هذه المقابلة بداية صداقة حميمة بينهما .

يوم الأحد القادم جاء ديك لزيارة هوبس في حانوته ، فاستقبله أحسن استقبال ، وقال له وهو يشير إلى علبة البسكويت :

– اجلس هنا .. وكُلْ من برميل التفاح هذا ما يحلو لك .. آه .. كان منذ أسابيع جالساً هنا يأكل التفاح من هذا البرميل .

وتعددت زيارات ديك للسيد هوبس ، فكان يقدم إليه الطعام ويهديه بعض المواد الغذائية كالأسماك المجففة والجبن والبسكويت أو

علب السردين ، ويتحدثان عن طبقة النبلاء في إنكلترا . وقد قرأ السيد هوبس الجرائد والكتب التي جلبها له ديك عن هذه الطبقة ، واطلع على أمور كثيرة من حياتها البائسة .

وزاد فضوله لمعرفة المزيد عنها ، فذهب إلى المكتبة الوطنية وطلب من القيم على الكتب أن يعطيه كتباً جادة تتحدث عن هذه الطبقة النبيلة .

فقال قيم المكتبة مندهشاً :

– لم أسمعك جيداً يا سيدي .

– أريد كتاباً عن الكونتات الإنكليز أو عن اللوردات لأنهم طبقة واحدة كما أظن .

– لا أظن أن لدينا ما تطلبه .

فصرخ هوبس :

– هذا أمر غير معقول .

– ولكنْ لدي مؤلَّف يلعب فيه النبلاء الإنكليز دوراً هاماً .

وقرأ هوبس ذلك الكتاب الذي يتحدث عن النبلاء الإنكليز ، ولكن في عهد (ماري تيدور) المشهورة في التاريخ باسم (ماري الدموية) .

وأصيب بالذعر ، وقال لديك :

– لقد رمى سدريك نفسه بين فكي الذئب ، ولا أدري كيف هي الملكة فيكتوريا ، ملكة إنكلترا الحالية ، ولكنها إذا أصبحت مثل ماري تيدور ، فإنها الحرب لا محالة ! وسوف ترمي في السجون الناس جميعاً .

وبعد أيام وصلته رسالة من سدريك تطمئنه ، وتذكر أن جده رجل لطيف مهذب لا يلبس التاج ولا يرمي الناس في السجون .

وانتهى هوبس إلى استنتاج أن هذا الكونت رجل شهم .

وبعد أيام وصلت رسالة إلى ديك تذكر له الشيء نفسه تقريباً ، فزال قلقهما ، وأمضى البقال وماسح الأحذية ساعات طويلة في كتابة رسالة جواب إلى سدريك . وكانت القضية شاقة بالنسبة إلى ديك الذي لم يتعلم الإملاء والنحو إلا عدة أشهر قضاها

لدى أخيه ، وقد دفعه ذكاؤه إلى الحرص على ما تعلمه ، فكان يتمرن على الإملاء بقطعة طباشير وبقراءة الجرائد .

أثناء هذه الزيارات العديدة التي قام بها ديك إلى حانوت هوبس روى له سيرة حياته بالتفصيل وكيف أن أخاه (بين) أعاله بعد وفاة أمهما حتى كبر وأصبح يبيع الجرائد ، ثم تزوج (بين) ووجد عملاً ملائماً له في أحد المحلات الكبرى . وتابع ديك قائلاً :

– وكانت زوجته عصبية لا تطيق رؤيتي ، وكانت تكلفني بالأعمال المنزلية ، وذات يوم رمتني بصحن ولكنه أصاب ولدها الصغير فسالت الدماء من رأسه ووجهه ، وبقي أثر الجرح في ذقنه طول حياته . وقد سئم أخي من الحياة معها ، فهاجر إلى غرب البلاد حيث عمل في إحدى المزارع مربياً للماشية . وبعد أيام رجعتُ إلى البيت لأجدها قد حزمت حقائبها وغادرت المنزل وأخذت الطفل معها ، وحين رجع أخي أصيب بخيبة أمل شديدة ، خاصة وأنه يحب ولده وزوجته حباً جماً . وبعد بحث وتفتيش تبين له أنها تعمل خادمة لدى أرملة وتكسب عيشها ، ولا أدري ما فعل أخي بعد ذلك لأني لم أره منذ ذلك اليوم .

ونهض السيد هوبس ليأتي بالجرائد ، فوجد بينها رسالة من سدريك فهتف فرحاً :

– إنها رسالة منه .

وفتح الرسالة وقرأها بصوت مرتفع ، وهذا مضمونها :

(قصر دورنكور

عزيزي السيد هوبس ..

أكتب إليك هذه الرسالة بسرعة لأن لدي أمراً غريباً أرويه لك وسوف تدهش له ، فالواقع أنه قد حدث خطأ بالنسبة إلي ، والظاهر أني لست لورداً ولن أكون كونتاً ، فقد تزوج عمي بوفيس امرأة وأنجب منها طفلاً ، وسيكون هو لورد فونتروا ، لأن التقاليد الإنكليزية تفرض ذلك ، ولا يرث الكونت إلا ولده البكر ، وإذا توفي الأب ورثه ابنه ، ولأن أبي هو الابن الأصغر فإن ابن أخيه سيكون لورداً ، وأما أنا فلست سوى سدريك إيرول مثلما كنت سابقاً ، وستعود الأشياء كلها إلى الطفل الآخر ، حتى حصاني سيأخذه أيضاً ، ولكن جدي يعارض ذلك وهو غاضب جداً ولا يحب تلك المرأة ، ولأني لن أكون كونتاً فلن أكون غنياً

أيضاً ، وهذا مزعج لأن الغني يستطيع فعل أشياء كثيرة ، كبناء البيوت للفقراء ، وقد أشتغل سائق عربة حين أصبح كبيراً ، بعد أن علمني ويلكنس كيف أسرج الخيول ، وأظنها مهنة جيدة ، أليس كذلك ؟

لقد جاءت المرأة وولدها إلى القصر ، ولكن جدي رفض مقابلتها ، وصرخت المرأة بصوت مرتفع ، فاشتد غضب جدي ، وهذه أول مرة أراه فيها غاضباً ، ولا أدري ما سيحدث في المستقبل .

لقد كتبت إليكم بسرعة لأني أظنكما تهتمان لهذا الأمر ، وسأروي لكم البقية فيما بعد .

صديقك القديم سدريك إيرول وليس فونتروا)

فظهرت الكآبة على السيد هوبس وصاح غاضباً :

– آه .. يا كيس الورق ! ليحملني الشيطان إذاً !

وردد ديك بجانبه وهو حزين :

– مستحيل .. لقد انتهى كل شيء .

وهتف هوبس فجأة وقد وثب على قدميه :

– أتدري ما الأمر ؟ إنها مؤامرة دبرها النبلاء الإنكليز ، لأنهم لم يتقبلوا إعلان الاستقلال والثورة الأميركية ، لذلك صبوا انتقامهم على ابن أميركا الحرة ، وقد تآمرت حكومتهم معهم لانتزاع لقبه منه .

وجعل يتمشى جيئةً وذهاباً وديك يتأمله ذاهلاً . وكان هوبس قد أنكر على سدريك قبوله لقب لورد بادئ الأمر ، ولكنه حين رأى أن وضعه الجديد يدر عليه أموالاً طائلة وجد اللقب شيئاً هاماً ، وأغضبه أن يذهب إلى شخص سواه .

بعد أن ودع ديك مشى في الحارة ووقف طويلاً أمام بيت سدريك المكتوب فوقه (للإيجار) ، ثم رجع إلى حانوته وهو يلعن إنكلترا الوضيعة .

الفصل الثاني عشر

الموقف الحرج



كانت الأحداث المذكورة موضوعاً لعناوين الصحف الإنكليزية ، فذكرت أن الكونت قد أرسل في طلب حفيده من أميركا ليرث ألقابه ، وقد تعلق به ولم يعد يستطيع التخلي عنه . ولكن ظهرت على مسرح الأحداث امرأة جميلة تزعم أنها زوجة ابنه البكر بوفيس ، وأن ولدها الوارث الحقيقي ، ويقال إن الكونت سوف يلجأ إلى القضاء ، وستكون هذه القضية إحدى قضايا العصر الكبرى ، وقيل كلام كثير حول هذه القضية .

أما في القرية فقد ذاع النبأ وشغل الفلاحون به وعمتهم الكآبة ، وكانوا يتجمعون في السوق يناقشون هذه القضية وما

سوف تنتهي إليه ، ويذكرون الغضب الشديد الذي اجتاح الكونت وتصميمه على توريث الفتى الأشقر مهما كلفه الأمر .

راجت بضاعة السيدة ديبل ، وتوافد الزبائن على حانوتها يشترون الإبر والشموع ويسمعون آخر الأنباء وكانت تؤكد لزبائنها قائلة :

– إنها عدالة السماء التي اقتصت من الكونت لسوء معاملته أبناءه ، ولتفريقه بين هذه السيدة المحسنة وبين ولدها .. هذا رأي ! وها هو يفقد صوابه لفراق حفيده الذي لا غنى له عنه ، وقيل لي إن السيدة المدعية ليست من الطبقة الراقية مثل السيدة إيرول ، والخدم يرفضون كما قال لي توماس تقديم أي عون لها وإنه سيترك الخدمة إذا استقرت في القصر ، وأما ولدها فلا يمكن مقارنته باللورد الصغير ذي السيرة الحسنة والنظر البديع .

أما في القصر فقد كان سكانه لا يدرون ما يفعلون وقد هالهم النبأ ، وكان الكونت يجتمع ساعات بالسيد هافيشام وقد كبر عشر سنوات من الحزن ، وسيطرت الكآبة على السائس ويلكينس ،

فصب حنانه على الحصان القزم ، فكان ينظفه مرات عديدة في اليوم ويملأ معلفه بالجزر الوفير .

وكان أقل سكان القصر حيرة لورد فونتروا نفسه الذي تلقى النبأ صابراً ، وسأل جده :

– هل معنى ذلك أنك ستأخذ منـــزل شيري وتنتزع منها عربتها ؟

فاستاء الكونت لهذا السؤال وقال غاضباً :

– لا .. لن يأخذ أحد منها شيئاً .. سيبقى كل شيء كما كان .

وقال سدريك :

– والآخر .. أعني حفيدك الجديد .. هل سيغدو العزيز على قلبك مكاني .

فلم يتمالك الكونت نفسه وهتف بأعلى صوته حتى خاف سدريك :

– لن يحدث هذا ما دمت على قيد الحياة ..

فتردد سدريك قبل أن يقول :

– سأظل إذاً ولدك الحبيب إلى قلبك حتى ولو لم أصبح كونتاً ؟

فانتابت الكونت حالة عاطفية لم يشعر بها من قبل ، فالتمعت عيناه وهو يقول :

– نعم .. ستظل ولدي الحبيب ، الوحيد الذي لم يكن لي ولد سواه .

فهدأت نفس سدريك وارتاحت خواطره ، وقال :

– لا يهمني ألا أكون كونتاً يا جدي !

فاقترب الكونت من حفيده ووضع يده على رأسه وقال :

– سأفعل ما بوسعي لكي تكون كونتاً .. ولن ينتزع أحد منك لقبك ولو كلفني هذا حياتي .. ولن تُحرم من شيء ، لأنك مخلوق لكي تكون وريثي .. فلا تخف يا لورد فونتروا !

ومن الغد بدأت المعركة بين الكونت وامرأة بوفيس التي طلبت مقابلته ، ولكنه أوعز إلى الخادم توماس أن يوجهها إلى السيد هافيشام لتناقش معه قضيتها فهو يرفض مقابلتها .

وفي المساء ، أعلن توماس لأصدقائه أنه مستعد لحبل المشنقة إن كانت هذه المرأة ليدي من الطبقة الراقية ، وقد وافقه أصدقاؤه على ذلك .

انصرفت المرأة وقد نال منها الغضب ، ولاحظ هافيشام أنها لم تكن واثقة من نفسها كما كانت في المرة الأولى ، وعلى الرغم من سلاطة لسانها فقد ظلت شديدة الحذر لأنها لم تتوقع مثل هذه المعارضة العنيفة .

ومهما يكن الأمر فإن هافيشام رتب مقابلة بين المرأة والكونت في فندق (إيكو) الذي تقيم فيه ، وحكى للسيدة إيرول تفاصيل ما جرى أثناءها ، فقد دخل الكونت إلى الغرفة منتصب القامة مقطب الجبين ، وعيناه ترميان بالشرر ، وتأملها من رأسها إلى قدميها وهي تعرض عليه مطالبها ، ثم قال لها :

– لئن ربحت الدعوى في المحاكم واعترفتْ بما تقدمينه من إثباتات فسوف أتقبل الحكم ، وسيكون ولدك لورد فونتروا ، وسأجري عليك راتباً تعيشين به ، ولكنك لن تواجَهي بالترحاب في

قصري ، وسوف أبذل جهدي لأجعل حياتك جحيماً ما دمت حياً .

بعد أيام كانت السيدة إيرول جالسة في غرفتها حينما اندفعت إليها ماري وصاحت منذهلة :

– انزلي بسرعة يا سيدتي .. ولن تصدقي عينك .

– ماذا حدث يا ماري ؟

– إنه الكونت .. لقد جاء لرؤيتك !

– الكونت .. كونت دورنكور ؟ سأنزل حالاً ..

دخلت السيدة إيرول القاعة الصغيرة فرأت الكونت واقفاً فوق جلد النمر أمام المدفأة ، فسألها وهو يحييها :

– السيدة إيرول ؟ إني كونت دورنكور .

– تشرفت بزيارتك يا سيدي الكونت .

فنظر إلى المرأة محدقاً وانتابه إحساس غريب ، ثم قال بصوت خافت :

– إن الطفل يشبهك كثيراً !

– هذا ما يقال لي يا سيدي الكونت .. ولكنه يشبه أباه أيضاً .

وأيقن الكونت أن أخته على حق في حديثها عن السيدة إيرول ، ولم يجدها قد اضطربت لحضوره ، وقال :

– نعم .. إنه يشبه ولدي .. لعلك تعرفين سبب زيارتي !

فقالت :

– نعم .. لقد قابلت السيد هافيشام وأطلعني على متطلبات تلك المرأة ..

فقال الكونت :

– جئت لأقول لك إني سأعارض متطلباتها ما بوسعي ، وسوف أدافع عن موقف ولدك ..

فقاطعته بلطف قائلة :

– عذراً يا سيدي الكونت .. لعل تلك المرأة تحب ولدها مثلما أحب ولدي ، فإذا كان هو لورد فونتروا الحقيقي فلا مجال للمعارضة !



فنظر إليها مندهشاً ، ولكنها قابلت نظراته بكبرياء وحزم يعرفهما لدى ولدها سدريك ، وسره أن يجد فيها هذه الكبرياء وذلك الحزم اللذين يفتقدهما في الناس المحيطين به ، وكأنهما شيء جديد عليه . فسألها الكونت مستنكراً :

– تفضلين ألا يكون كونتاً إذاً ؟

– لا شك أن لقب الكونت يشرف ولدي ، ولكني أفضل أن تكون له عَظَمة أبيه .

– وهذا يتعارض مع صفات جده .. أهذا ما تريدين قوله ؟

– لم تتح لي الفرصة للتعرف على جده ، ولا يجوز لي الحكم عليه ..

فهدّأت من لهجتها وقالت :

– ولكني أعرف أن سدريك يحبه كثيراً .

– وهل يستمر في حبه لو علم أني أرفض استقبالك في القصر .

– لا أظنه يفعل .. ولذلك لم أذكر له شيئاً .

فقال الكونت بلهجة حنان :

– لا أظن كثيراً من النساء يفعلن مثلك .

وجعل يتمشى جيئة وذهاباً وهو يجذب شاربيه ، ثم تمتم قائلاً :

– نعم ، إنه يحبني وأبادله هذا الحب ، ولم أحب ولداً مثل حبي له ، إني رجل هرم ولم يعد لي في الحياة مطمع ، فجاء إلى آمالي فأحياها وبعث في أوردتي دماً جديداً ، وقد هدأت خواطري إذ أدركت أن من يرث لقبي فتى يستأهله ويكون جديراً به .

ثم انهار على الكنبة وقال بصوت خافت مرتجف :

– إني رجل هرم يحس بالتعاسة ، وقد أخطأت بحقك ، وازداد كرهي لك لما يحمله لك ولدك من الحب ، وجاءت هذه القضية لتفتح عيني على الحقيقة ، فما أنا إلا شيخ فان ، مختل الإدراك ، أغار من محبة الطفل لأمه وعطف الأم على ولدها ، أتشبث بأفكاري البالية ، وها أنا قد جئت إليك لعلني أجد عندك بعض السلوان .

وتلفظ هذه الكلمات الأخيرة بصوت أجش ويداه ترتجفان ، فقالت له :

– إن ما يجمعنا هو حبنا لهذا الطفل البريء ، وسوف نناضل لإسعاده .

فقال :

– تأكدي من شيء واحد هو أنه مهما حصل فلن تتبدل حياتك أو حياة ولدك .

وتلفت حوله وسألها :

– هل تحبين هذا المكان ؟

– نعم .. أحبه كثيراً .

– فهل تسمحين لي بزيارتك لكي أكلمك فيما يشغل بالي ؟

فأجابته بحماسة شديدة :

– مرحباً بك في كل وقت يا سيدي الكونت !

فحياها الكونت وخرج مسرعاً وصعد العربة ، فتبادل الخادم توماس والسائق هنري نظرات التعجب للمنحى الجديد الذي اتخذته هذه الأحداث .

الفصل الثالث عشر

أميركا ترسل نَجَداتها



لم تلبث الصحف الأميركية أن تناولت هذه القضية التي رمت أحد أبناء الولايات المتحدة في عائلة إنكليزية قوية ، واختلف تناولها للمسألة بحسب مزاج الصحفيين وما وصلهم من معلومات .

وكان السيد هوبس يقرأ هذه الصحف كلها ، فاختلطت عليه الأمور ، فمن قال إنه رضيع خطفته مربيته من مهده ، ومن قال إنه فتى في الثامنة عشرة حصل على الجوائز الأولى في دروس اليونانية واللاتينية في كلية الآداب ، وقال ثالث إنه قد تزوج ابنة دوق رائعة الجمال ، أما الأمر الذي تناسوه جميعاً فهو أن سدريك طفل

صغير بين الثامنة والتاسعة ، يحب اللهو في الحقول والركض في الطبيعة ، وخصلات شعره الأشقر تتطاير حول كتفيه .

واختلفت الصحف حول وصف الطفل الآخر ووصف أمه ، فذكرت إحداها أنها من أصل غجري ، وقالت ثانية إنها ممثلة أوربية مشهورة ، وزعمت ثالثة أنها مركيزة إسبانية ، فأسخطت هذه الأقاويل السيد هوبس وأغضبته ، واتفقت الصحف على أن الكونت عدوها اللدود ، وقد هدد باغتيالها وعدم الاعتراف بحفيده إلا أمام المحاكم ، ووصفته بأنه رجل شرس يضرب الفلاحين بالسياط ويدوس بحصانه محاصيلهم .

وحين اجتمع هوبس وديك يناقشان ما تروجه الصحافة ذهلا للمنـــزلة العظيمة التي يشغلها الكونت في بلاده ، وفتحا عيونهما دهشة لرؤية صورة القصر الذي يعيش فيه . وضرب هوبس يده على علبة البسكويت وقال :

– ماذا بوسعنا أن نفعل ؟

واتفقا على أن يبعثا إلى صديقهما سدريك برسالة تشجيع وتضامن ، وشكراه على ما أسدى إليهما من معروف ، وأكدا له

أن مكانه شاغر في أميركا ، وأنه يستطيع العودة للعمل مع ديك إذا أراد ، لأن مسح الأحذية يدر الكثير من الدولارات هذه الأيام .

وكتب له السيد هوبس رسالة مطولة مفصلة أكد له فيها أن النبلاء الإنكليز لن يقدروا جميعاً على فتى أميركا الشجاع ، وأنه عازم على مساعدته ، وسوف يستشير أحد رجال القانون لعله يجد مخرجاً مشرفاً لهذه القضية ، ودعاه في الأخير إلى العودة لمسقط رأسه ليبدأ حياته في البقالة لأن في أميركا (بيتاً يؤويه وصديقاً يحميه) .

من الغد كان ديك يمسح حذاء أحد زبائنه ، وهو محام شاب تخرج من الجامعة حديثاً ، وليس لديه الكثير من القضايا يدافع عنها ، ولكنه شديد الحيوية بالغ الذكاء ، وكان يقرأ الجريدة ، فوصل إلى الصفحات التي تتحدث عن قضية الكونت ، فبسط الجريدة أمام عيني ديك وقال له :

– ألا تتابع أخبار العظماء في هذه الدنيا ؟ إليك صورة قصر إنكليزي وليدي إنكليزية جميلة تدعى الليدي فونتروا ..

فسقطت الفرشاة من يد ديك وقال :

– اعذرني يا سيدي .. لدي مهمة عاجلة .. إني أعرف هذه السيدة .

فضحك المحامي عالياً وهو يقول :

– تعرفها ؟ .. وأين التقيت بها أرجوك ؟ هل صادفتها في دار الأوبرا أو على شاطئ البحر ، أم أنك تعرفت إليها في زيارتك الأخيرة إلى باريس ؟

ولم يجبه ديك بل جمع عدته وحمل صندوقه وخطف الجريدة من يد المحامي وانطلق يجري .

دخل ديك حانوت السيد هوبس كالقذيفة ورمى إليه بالجريدة وهو يلهث ، فقال له السيد هوبس :

– لقد أفزعتني .. ماذا جرى ؟

فتوقف ديك يلتقط أنفاسه وهو يقول :

– انظر إلى الصفحة الأولى .. الليدي فونترو .. إنها صورة المرأة .

فقال هوبس :

– ولتكن صورة الليدي أو أي امرأة أخرى .. فلم تضطرب هكذا ؟ أرى أنها امرأة جميلة ، ولكن النساء يتشابهن في رأيي ، ولا معنى لدهشتك هذه ! ولا تنس أن النبلاء لا يتزوجون إلا النبيلات !

فقال ديك :

– وهذه من النبيلات ؟ لئن كانت هذه المرأة من النبيلات فأنا رئيس الولايات المتحدة إذن ! ألا تعرف من هذه المرأة ؟

ورأى دهشة هوبس فصاح به :

– إنها زوجة أخي .. إنها (مينا) .

– هل أنت متأكد مما تقول ؟

– وهل في الدنيا امرأة تشبه (مينا) ؟ إنها هي التي رمتني بالصحن وشقت ذقن ولدها ، أتذكر ماكتبته الصحف عن ولدها ، وكيف أن في ذقنه ندباً .. ها .. ها .. اللورد فونترو ابن أخي الآن ! هذه أجمل نكتة سمعتها .

حينئذٍ انقلب حانوت هوبس إلى غرفة للعمليات الحربية ، فقرر السيد هوبس بمساعدة البروفسور ديك تيبتون أن يبعث رسالة

إلى (بين) يشرح له القضية مع الصورة التي قصّها من الجريدة ، كما بعث رسالتين ، واحدة إلى سدريك والأخرى إلى الكونت دورنكور ، ولكن الذكاء الوقاد للبروفسور ديك لم يتوقف عند هذا الحد ، فضرب جبهته بيده وصاح :

– ولكن الزبون الذي أعطاني الجريدة هو محام .

– ومَنْ خيرٌ من المحامي في معرفة هذه الأمور ؟

فاشتعل هوبس حماسة وهتف :

– آه .. ليحملني الشيطان .. لابد من المحامي !

فأوكل هوبس حانوته إلى إحدى جاراته ولبس سترته وسارع مع ديك إلى مكتب المحامي .

لم يدهش الأستاذ (هاريسون) لزيارة هذين الرجلين بل ذهل ذهولاً تاماً ، ولم يفهم بادئ الأمر ما المطلوب منه ، ثم أصغى إلى تفاصيل الحكاية من ديك ، وعرف أنه يطلب مساعدته ضد أسرته تقريباً ، فالمتهمة زوجة أخيه في نهاية الأمر ، وقال أخيراً :

– حسناً .. سأتولى هذه القضية ، وإذا نجحت فيها فسوف أنال شهرة عالية ، وتعود علي بالفائدة وعلى صديقكم اللورد

فونتروا أيضاً ، وأجد في تصريحات المرأة غموضاً شديداً ، فهي لا تعرف تاريخ ميلاد الطفل بالتحديد ، سأبدأ بكتابة رسالة إلى أخيك وثانية إلى سكرتير كونت دورنكور .

ولم يقبل الليل حتى انطلقت رسالتان ، الأولى تركب القطار إلى بين تبتون في كاليفورنيا ، والثانية تستقل السفينة إلى السيد هافيشام في إنكلترا ..

كان الكونت جالساً أمام المدفأة وقد أثقلت كاهله الهموم ، ولا يدري أن في الجانب الآخر من الأطلسي كتيبة من الفرسان تتأهب للهجوم .

الفصل الرابع عشر

المحتالة



لقد تقلبت الأيام بهذا الفتى ، فما بين غمضة عين وانتباهتها تحول من طفل يتيم إلى وارث الأملاك والألقاب ، وتكاد لمحة عين أخرى تعود به إلى فقره وتزيده لقب (المحتال) .

وقد تبين أن تلك المرأة تطمع في المال لا في شيء سواه ، فاضطربت أجوبتها أمام السيد هافيشام الذي حافظ على هدوئه واتزانه ، واختلطت الأمور في رأسها ، ولكن لا يوجد دليل ينفي كونها أرملة بوفيس ، وقد ساد الغموض قضية ولدها ، فإن صح أن بوفيس قد سئمها وأعطاها بعض المال كي تختفي من حياته ، فمتى ولد هذا الطفل ؟ واكتشف هافيشام أن مكان ولادته في لندن غير مؤكد ، فابتهج الكونت كثيراً ، ولكن لا

تسل عن سعادته حين وصلته رسائل ديك وهوبس والمحامي هاريسون .

وعقد الكونت مع مستشاره هافيشام مجلساً حربياً يتدارسان فيه خطط الهجوم ، وقال هافيشام :

– تؤكد هذه الرسائل أن الولد أكبر مما تزعم أمه .

– ولكنها ستنكر ذلك .

– ليست ماهرة في هذه الأمور .

فقال الكونت :

– اسمع يا هافيشام ! أرسل برقية إلى أميركا وما يلزم من المال لتستدعي الأخوين ديك وبين تيبتون وكل من يشهد معهم .

بانتظار وصول الأخوين كان هافيشام يستكين للمرأة ويزعم لها أنه يواصل تحرياته التي قد تنتهي إلى صالحها .

وذات صباح كانت جالسة في قاعة فندق (إيكو) تحلم بمشاريع المستقبل الزاهرة حينما استأذن السيد هافيشام بالدخول ومعه رجلان يصحبهما كونت دورنكور .

أما الأول فرجل في الثلاثين لوحت ملامحه الشمس ، والثاني فتى قوي العزيمة يدعى البروفسور بين زملائه ، وما إن رأهما الليدي المزعومة حتى نهضت من جلستها المتعالية وارتمت على قدمي الكونت باكية متوسلة ، فمن أين جاء هذان الرجلان الضائعان في أميركا الواسعة ؟

وبدأها ديك قائلاً :

– مرحباً .. مينا ! كيف حالك ؟ اشتقت إلى رؤيتك .

ولم يتكلم أخوه بين ، فسأله الكونت :

– هل تعرفها ؟

– نعم .. حق المعرفة .. وهي تعرفني .. لقد كانت زوجتي .

ثم التفت ينظر من النافذة كأن مرآها يؤلمه .

فانتابت مينا إحدى تلك النوبات المسعورة التي وصفها ديك للسيد هوبس ، فأشبعت الحاضرين تهديداً وشتماً .



قال بين تيبتون :

– لا تتعبوا أنفسكم في التحري ، إنها زوجتي ، وهي ابنة عامل شريف لا يكاد يعترف بابنته الشريرة التي تزوجتها لسوء طالعي .

ثم مشى إلى مينا وقد أحكم قبضتيه وصاح :

– أين ولدي ؟ يجب أن آخذه .

في تلك اللحظة جلبت الضجة الطفل ، ففتح الباب وأطل برأسه ، وكان شبهه بوالده يلفت الأنظار ، وفي ذقنه أثر جرح عميق ، فاندفع إليه أبوه وحمله بين ذراعيه المرتجفتين وهو يقول :

– إني أبوك يا توم .. جئت لأخذك .. ارتد معطفك .. سنذهب .

لم يجد الولد هذا مستغرباً ، فقد ابتعدت عنه أمه زمناً طويلاً وتركته لدى إحدى المربيات في لندن وتعوّد أن يعيش بعيداً عنها .

وقال بين للسيد هافيشام :

– إذا احتجت إلي فأنت تعرف أين تلقاني .

وخرج الأب ممسكاً بيد ولده ، وكانت مينا ماتزال تصرخ وتتوعد ، فقال لها هافيشام :

– اهدئي يا سيدتي .. وإلا اضطررنا إلى حبسك .

فانصب عليها هذا القول كالماء البارد وسكتت تماماً ، ثم أدارت ظهرها وأغلقت عليها باب الغرفة بقوة .

وقال السيد هافيشام :

– أظن أن القضية انتهت يا سيدي الكونت !

حينما خرج الكونت من الفندق صاح بالسائق : إلى مزرعة لودج !

وما إن وصلها حتى دخل إلى البيت دون أن يعلن عن مقدمه ، على الرغم من تمسكه بقواعد الأصول والتهذيب ، وكان مشرق الوجه يرتجف شارباه من الانفعال تحت أنفه المعقوف كأنف الصقر ، وكان سدريك وأمه في القاعة .

فصاح الكونت بصوت كالرعد :

– أين لورد فونترو١ .. من فضلك ؟

وتقدمت السيدة إيرول تسأله :

- هل هو اللورد فونترو حقاً ؟

فأخذ يديها بين يديه وقال :

- نعم .. ولم أشك لحظة في أنه لورد فونترو .

ثم التفت إلى سدريك وصاح به آمراً :

- فونترو .. هلا سألت والدتك عن موعد مجيئها إلى بيتها في القصر ؟

فقالت الأم بصوت مرتجف :

- هل أنت متأكد من حاجتك إلي ؟

فقال الكونت ضاحكاً :

- كنا دوماً في حاجة إليك .. ولكن .. قاتل الله العناد !

الفصل الخامس عشر

عيد ميلاد سدريك



بعد عدة أيام رجع بين تيبتون مع ولده توم إلى أميركا ، ولكن حالته قد تبدلت تماماً ، إذ اتصل به السيد هافيشام قبل سفره وأعلمه أن الكونت قد قرر أن يفعل شيئاً يفيده ، فعزم على شراء مزرعة كبيرة في كاليفورنيا ويوكل إليه مهمة الإشراف عليها ، ويستطيع أن يوفيه ثمنها بالتقسيط إن استطاع .

وأما ديك فلم يرجع فوراً إلى أميركا ، فقد وجد الكونت أنه مدين له بالكثير ، فعزم على تعليمه وتهذيبه .

أما السيد هوبس فقد قرر أن يبقى أسابيع أخرى لدى صديقه سدريك بعد أن استعاد لقبه ، وخاصة أن عيد ميلاده ليس ببعيد ، وقد دعي إليه أفراد العائلة والنبلاء وكبار الملاّك في المنطقة كلها .

وقال سدريك للسيد هوبس : سيكون احتفالاً رائعاً تقام فيه الأفراح وتطلق الأسهم النارية كما في الرابع من تموز ، وكم آسف لأن عيد ميلادي لا يوافق الرابع من تموز وإلا كانت حفلة مزدوجة .

والحق أن السيد هوبس لم يغير أفكاره المسبقة عن النبلاء ، وإن صحح بعض الأخطاء عنهم . وحين تجول في الحديقة ورأى الآيائل ترعى حرة طليقة ، وتأمل السباع الحجرية المنحوتة أدرك سعة هذا المكان وعظمته ، وقال : إن هذا متحف وليس بيتاً .

وشرح له سدريك معاني الكلمات المحفورة تحت التماثيل ، وقال له وهو يشير إلى الصور التي تزين جدران القصر :

– إنهم أجداد أجدادي !

– أجداد أجدادك .. ما أكثرهم !

وبين له سدريك أنهم لا يعيشون الآن معاً وإنما هم من الأموات ، ولم يبق منهم سوى جده الكونت الذي يراه .

واستدعى السيدة ميلون المطلعة على أنسابهم ، فجعلت تشرح له أسماءهم وأعمالهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ، حتى إنها ذكرت له اسم الرسامين الذين رسموا صورهم .

فحك هوبس رأسه وقال : الحقيقة .. ليس أمراً مستنكراً أن يكون المرء من طبقة النبلاء .

أما الشيء الرائع الذي لن ينساه أبداً ، فهو الاحتفال بعيد ميلاد سدريك ، فقد أشعلت الأضواء في الممر المؤدي إلى القصر وأُقيمت الزينات وعُزفت الموسيقا ورقص المدعون من النبلاء والعامة ، كل في حلقة منفصلة ، ورفع الكونت دورنكور شعار الكونتية فوق القصر لأول مرة في حياته .

وتوافد الناس إلى القصر يهنئون الكونت بعيد ميلاد حفيده وانتصاره على المحتالة ، ويهنئون لورد فونترو١ كذلك ويشكرونه على ما قدمه من إحسان . وكانت السيدة إيرول تتألق فرحاً وهي ترى النساء يتقدمن إليها شاكرات لها رعايتها لهن ويهنئنها لاستعادتها مكانتها في القصر .

واعتقد الناس أن الكونت إذا استمر في هذا الطريق ، فسوف ينقلب من شيخ نكد متجهم محب للشر إلى إنسان سمح كريم فعّال للخير .

كان القصر يضج بالضحكات البهيجة ، ومن بين المدعوين الليدي لورديل طبعاً وزوجها السير هنري ، كذلك السير توماس آش مع بناته ، وكذلك السيد هافيشام الذي توسعت ابتسامته للمرة الأولى منذ شهور ، وكان القس موردوت حاضراً فكان يرفع يديه إلى السماء شاكراً الله على نعمائه . أما التي جذبت إليها الأنظار فهي الآنسة فيفيان هربرت التي كانت ترتدي ثوباً أبيضَ رائعاً ، وتحيط بها كالعادة ثلة من الشبان المعجبين بجمالها ، فتركتهم وجرت إلى سدريك وهي هتف :

– أوه .. لورد فونتروا العزيز ! إني مشتاقة إلى رؤيتك .

فقدّمها سدريك إلى صديقيه ديك وهوبسون ، فجلسوا يتحدثون جميعاً عن أميركا وما فيها من توافق واختلاف مع إنكلترا .

لم تكن الأنظار كلها متجهة صوب سدريك فحسب ، فقد كان المدعوون يتأملون هذا الشيخ الجلف القاسي وقد تحول إلى إنسان وديع لطيف المعشر . ونظرت إليه أخته وقالت لزوجها :

– هل تكذبني عيناي يا هنري أم أنني أرى الدموع تنسال على خدي أخي مولينو ؟

فقال هنري :

– أين هو ؟ إني لا أراه .

فأشارت إليه وهو ينظر إلى حفيده سدريك بجانب الآنسة فيفيان هربرت ، ولعله يتخيل ذلك اليوم الذي يكبر فيه حفيده ، فتقام له حفلة زفاف أروع من حفلة عيد ميلاده وأعظم .

أمسك سدريك بيد جده وسار به إلى الخيمة الكبرى التي نصبت للفلاحين وعمال المزرعة ، وكانوا يأكلون ويغنون فرحين ، وحين دخل عليهم الكونت ومعه حفيده وأمه ساد الصمت برهة ، ثم ارتفعت الأصوات بالتهليل ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وكانت فرحتهم على قدر دهشتهم ، وصاحت إحدى الفلاحات :

– عاش اللورد الصغير !

فقال سدريك لأمه :

– هل يقولون هذا لأنهم يحبونني ؟ إني سعيد بذلك .

واقترب الكونت من حفيده وقال :

– والآن يا فونتروا .. عليك أن تجيبهم شاكراً .

– وهل هذا ضروري ؟

– هذا لابدّ منه !

وزال عنه خوفه حين رأى الجميع يبتسمون إليه ، فتقدم خطوة إلى الأمام وقال :

– أشكركم لحضوركم عيد ميلادي .. وآمل أن تكونوا قد استمتعتم به .. والفضل يعود إلى جدي الكريم وإليه ينصرف شكري وامتناني .

وتراجع خطوة إلى الوراء والتصق بجده وقد خيمت عليهما السعادة وأحاطت بهما هتافات الفلاحين ودعواتهم .

وانضمت إليهما السيدة إيرول ، فطوقها الكونت بيده وأحاط سدريك خصرها بذراعه ، وعمت السكينة قلوب الحاضرين ..

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

اللــورد الصغير

فرنسيس برنيت

